

المفردات والمفاهيم القرآنية (رؤية بلاغية)

أ. جمال الدين عبد العزيز شريف *

مقدمة :

لقد ظل القرآن معجزة على وجه الدهر باقية؛ ونبراساً على تطاول الزمان هادياً؛ ولذلك ظل العلماء والباحثون منذ العهود السحيقة في القدم يتلمسون نواحي الإعجاز به ويطلبون مواضع تحقق الجمال فيه . ولا ريب أنّ الدراسات السابقة التي صيغت في الأزمان البعيدة قد جاءت ملابسة لظروف تلك العصور ومعطيات ذلك الواقع؛ إذ أن الفكر لا ينبثق من العدم إطلاقاً ولا ينشأ من الفراغ بحال .

ولما كانت المعرفة أمراً تراكمياً لا ينقطع عند جيل؛ فإنه لا بد من بناء معرفتنا المعاصرة على جهد من سبق؛ ملابسين لظروف زماننا غير منفيين عن واقع عصرنا الحاضر؛ وهذا يتطلب كثيراً من التنقيب والاستقصاء وبعد النظر وقوة العزيمة .

ولا شك أن الأمر الذي لا يماري فيه أحد أو يجادل هو أنّ الفكر الإسلامي في هذه المرحلة من مراحل تطوره يواجه الكثير من التحديات ويمر بكثير من المنعطفات التاريخية الكبرى؛ لا سيما وأنه قد نشأت فيه العديد من القضايا الجادة المستجدة؛ ومن ذلك على سبيل المثال اتخاذ القرآن مصدراً من مصادر المعرفة مثبتاً إعجازه كمصدر وليس كموضوع للدراسة أو دليل قابل للفحص فحسب؛ وذلك وفق رؤية منهجية معرفية ابستمولوجية تحاول بناء العلوم إسلامياً؛ فتهدئها سواء السبيل .

ولا شك أنّ المفاهيم تمثّل ركناً ركيناً من البناء الفكري لأي نسق معرفي وتحتل موقع حجر الأساس منه؛ إذ أن تحليل بنية المحتوى المعرفي لأي حضارة يرتكز على ثلاثة عناصر في غالب الأمر؛ وهي المفاهيم، والعلاقات التي تولّف من المفاهيم حقلاً، والعلاقات التي تشكّل من الحقول نسقاً.... ونظراً لأهمية المفاهيم وخطورتها في إحداث التغيير الفكري والتحول الحضاري الذي ننشده لأمتنا؛ فإن توضيحها يجب أن يأتي في مقدمة أولويات الفكر الإسلامي المعاصر (1).

* محاضر بمعهد إسلام المعرفة (إمام) - جامعة الجزيرة .

(1) د. صلاح إسماعيل : دراسة المفاهيم من زاوية فلسفية ، مجلة إسلامية المعرفة ، 8ع ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ماليزيا ، أبريل 1997م ، ص 10-11.

ولما كان ذلك الأمر بهذا القدر الذي ذكرنا من الأهمية في قضية التأصيل المعرفي ؛ فقد عمدنا إلى إفراد المفاهيم والمفردات القرآنية بالدراسة والنظر ؛ وذلك بطريقة منهجية منظمة تجمع الدلالة والجمال الإعجازي في منهج واحد وتحاول الاستفادة من جهد الأقدمين في بناء المعرفة المعاصرة ، إلا أنّ المعالجة في هذه الدراسة تنير القضايا أكثر من كونها تحسمها؛ إذ أنها لا تعدو أن تكون أكثر من خطوة في طريق يمتد دهرًا ويستغرق عمراً . وقد حلّ البحث المفردة القرآنية إلى عناصرها الأولية وهي :

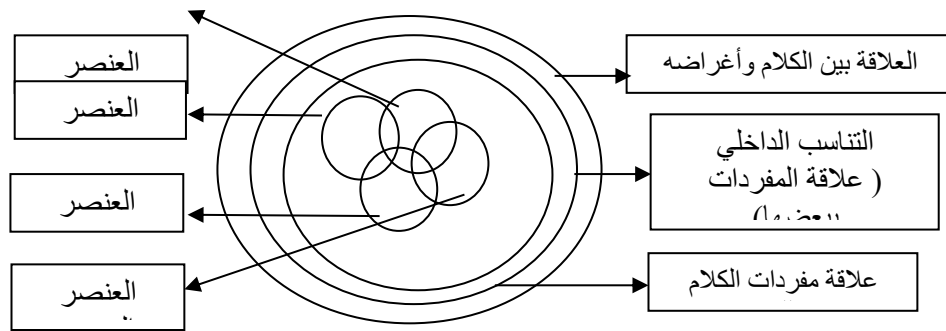
- 1- العنصر الصوتي .
- 2- العنصر الصرفي .
- 3- العنصر النحوي .
- 4- العنصر المعجمي .

وهذه العناصر تدرس تحت ثلاثة أطر وهي :

الإطار الأول : العلاقة بين الكلام والغرض : ونقصد به العلاقة بين المفردات التي تكوّن الكلام الإلهي وبين الغرض أو المقصد الذي يرمى إليه هذا الكلام أو الفكرة التي يعالجها .

الإطار الثاني : التناسب الداخلي : ونقصد به مناسبة المفردة للمفردات الأخرى داخل السياق القرآني وتأثيرها فيهن أو تأثرها بهن سواء في جانب الإعجاز الجمالي أو جانب المعنى وذلك داخل الإطار الأول .

الإطار الثالث : علاقة مفردات الكلام باللغة : ونقصد به علاقة المفردة داخل النظم القرآني باللغة ؛ أي المقارنة بين كونها داخل السياق القرآني والنظم الإلهي وبين كونها مفردة لغوية منعزلة عن النظم ومنسلخة عن السياق ؛ وأثر ذلك في الجمال والمعنى وذلك داخل الإطارين الأول والثاني .



مقومات الجمال الإعجازي :

ما زال الإنسان - منذ أن وطئت الأرض قدماه - يتقلب فيما ذرأ الله له وأبدع من مظاهر الجمال التي سبت

مشاهدها ناظريه وشئت أنغامها الرخيمة أذنيه ؛ فاستعذب ذلك واستحلاه، ووقف إزاءه مندهشاً مبهوراً.

وما زال الفلاسفة منذ العهود السحيقة في القدم - من يونانيين وعرب قدماء ومحدثين وأوربيين - يحاولون سبر تلك الأغوار البعيدة لحقيقة الجمال ، وإدراك سرها ، ولكنهم وجدوا أنفسهم أمام حقيقة تستعصي على التعليل والتعريف المانع⁽¹⁾.

فقد كانت نسبية الجمال من أكبر العقبات التي حالت دون تحقيق ذلك الهدف المنشود ؛ فالناس لا يكادون يتفقهون في إدراكهم الجمالي ؛ إذ لكل واحد منهم منظوره الخاص ومعياره الذاتي ، فالجمال في نسبيته هذه موغل في الذاتية ، بعيد عن الموضوعية ، والحكم فيه يرجع إلي الفرد ومزاجه ؛ ولذلك زعم بعض الفلاسفة انه ينبع من أنفسنا ، ويرجع إلى الظروف النفسية والاجتماعية التي تحيط بنا⁽¹⁾.

وليست هذه الذاتية قاصرة على الأفراد ؛ بل تتعداهم إلى المجتمعات ؛ إذ لكل جنس منظور وذاتية خاصة ، فسمات الجمال عند الزنوج غيرها عند الهنود أو الصينيين أو الأوربيين⁽²⁾.

وهذا الاختلاف الفردي أو الجماعي في الجانب الذاتي ، الذي لا يحكمه المنطق ، يجعل من الصعب تعريف الجمال ، ومع هذا فانه يلوح أن بين الأشياء الجميلة صفة وطابعاً مشتركاً يجعل الأشياء حسنة جميلة بصورة موضوعية⁽³⁾. فاللوح الفنية تُشكّلها ألوان عديدة وخطوط ومنحنيات ؛ تكون مشرقة في موضع وداكنة في آخر ؛ تتقارب أو تتباعد بحسب الفكرة والمراد ، وكذلك الموسيقى نغمات متتابعة ، والشعر والنثر يشتملان على أصوات وحروف ومفردات وجمل موضوعية بنمط معيّن وطريقة مخصوصة . فهل لهذه الجزئيات مزية يظهر بظهورها الجمال؟.

يكاد الفلاسفة على اختلاف آرائهم وأزمانهم يتفقون على حقيقة واحدة يتحقق بتحققها الجمال ؛ وهي التناسب والانسجام ؛ فالأثر الفني لا بد فيه من وجود أصرة تجمع المختلف والمتشابه والمتباين في وحدة لا تكاد الأذن أو العين تميزها إلا بعد التنبيه والتركيز⁽¹⁾.

ورغم هذا الاتفاق إلا أنّ النقاد المشتغلين بالأعمال الفنية القولية قد اختلفوا في جوانب هذه القضية ؛ فمنهم من نظر إلى الانسجام بين حروف المفردة حال انعزالها عن التركيب في العمل الفني ؛ فجزّ ذلك إلى عواقب غير محمودة كما

(1) د. معن زيادة وآخرون : الموسوعة الفلسفية الحديثة ، ط1 ، معهد الإنماء العربي ، بيروت ، 1986م ، ص 312-313.

(1) د. الطاهر محمد علي : الملامح العامة لنظرية الأدب الإسلامي ، ط1 ، دار جامعة أم درمان الإسلامية ، السودان ، 1984 ، ص 50 .

- د. عبد الحميد حسن ، الأصول الفنية للأدب ، ط2 ، القاهرة 1964 ، ص 16 .

(2) الموسوعة الفلسفية الحديثة ، ص 333.

(3) المصدر السابق ، ص 337.

(1) د. عبد الله الطيب : المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، ج1 ، ط1 ، ص 485 - 489 . بيروت ، 1970م.

سيأتي⁽²⁾، ومنهم من نظر إلى التناسب بين الفكرة والموضوع ، وآخرون نظروا إليه في الجرس ، ونظر إليه غيرهم في المعنى ؛ ولذلك كثرت الآراء وتعددت جهات النظر .

ورغم ذلك فلا شك أنّ الكلام على إطلاقه والأعمال الأدبية عامة وأنّ القرآن - خاصة - نصوص تشتمل على مفردات وجزئيات ، وهي باختلاف هذه الجزئيات من حيث اللفظ وجرسه وظلاله ، والمعنى من حيث دلالاته ، والتركيب الصرفي من حيث بناؤه للكلمة ، والعلاقات النحوية التركيبية من حيث الربط بين المفردات - وحدة منسجمة وكل لا يتجزأ إلا من حيث التحليل وإبراز الجماليات في إطار النقد والبلاغة. ولذلك فمن الخطورة محاولة إدراك قيمة المفردات ودلالاتها بقواعد سابقة أو معايير مفروضة من خارج النص لا تعتد بخاصية المفردات التي أكسبها إياها التركيب ، كما لا يمكن فصل اللفظ عن المعنى ولا الظلال التركيبية عن المفردات ؛ فالانفعال يتبلور في صورة لفظية وإيقاع موسيقي يمتزج أحدهما بالآخر تمام الامتزاج ، ويؤديان في امتزاجهما واتحادهما إلى كلام ذي موسيقى خاصة ترمز إلي الخواطر والأفكار والمشاعر التي صاحبت الانفعال فيه ، وإذا سمي جانب من هذه الخواطر والمشاعر معانٍ فإنّ جانباً منها لا تشمله هذه التسمية ؛ وذلك هو الجانب الشعوري الذي عاشت فيه هذه المعاني وما فيه من انفعال مبهم تشير المفردات إليه ولا تعبر عنه ؛ إنما يعبر عنه التركيب والإيقاع الموسيقي العام ؛ كما تعبر عن الألفاظ بجرسها أو بالظلال التي تلقينا والتي هي زائدة في الحقيقة عن معناها اللغوي الذي يفهمه الذهن.

ولأجل ذلك تبدو هذه القضية في غاية التعقيد والتشابك فكل هذه العناصر التي تشكّل المفردات متشابكة ومتداخلة ؛ بحيث لا يمكن فصلها أو تجزئتها أو إهمال بعض الجوانب فيها ، ولكن باستصحاب تلك الوشائج والعناصر غير المنفصلة - إلا في إطار النقد - يمكن تقسيم مكونات تلك المفردات إلى : عنصر صوتي "Phonetic" وعنصر معجمي "Lexical" وعنصر صرفي "Morphological" ، وهذه العناصر تعمل متأزرة على نحو متبادل ، وذلك داخل العنصر النحوي التركيبي حال ارتباطها ببعضها. ولتحسُّس مواضع الجمال في تلك العناصر لابد من اعتبار أو إدراك جوانب التناسب فيها ، وهذه الجوانب تتمثّل في الآتي :

أ/ العلاقة بين الغرض والتعبير :

إن العلاقة بين المفردات وبين الأغراض أو الأفكار العامة التي من أجلها قامت هو ما سماه البلاغيون بـ (مطابقة الكلام لمقتضى الحال) ، وقد كان ذلك هو جوهر البلاغة عندهم ، غير أن هذا المعنى لا يتوقف عند المباحث الثمانية⁽¹⁾ التي ذكروها في علم المعاني ؛ بل الدائرة أوسع من ذلك ؛ تمتد لتشمل مطابقة الأفكار والمعاني للموضوعات المختلفة التي

(2) انظر (العنصر الصوتي في هذا البحث).

(1) هذه المباحث هي : 1- أحوال المسند الخيري 2- أحوال المسند 3- أحوال المسند إليه 4- أحوال معلقات الفعل 5- القصر 6- الإنشاء 7- الفصل والوصل 8- الإيجاز والإطناب والمساواة.

يُشكّلها التعبير بمفرداته وهيئات هذه المفردات وأشكالها المختلفة⁽²⁾؛ إذ لا بد لأي متكلم من غرض يرمي إليه من كلامه ومقصد يسعى إليه من حديثه؛ فإنه لا يعقل إطلاقاً أن يتحدث متحدث مدرك أو يتكلم متكلم عاقل من غير فكرة يعالجها أو مقصد ينطلق منه، فللمتكلمين خواطر تجيش في صدورهم وأفكار تدور في أذهانهم، وعندما يظهرون كلامهم إنما يعبرون عن أفكارهم ومشاعرهم برموز لغوية يفرغون فيها هذه الأفكار والمشاعر؛ وعلى قدر استطاعتهم في التعبير تكون درجة إحسانهم في إصابتهم أغراضهم؛ وبقدر مطابقتهم بين التعبير والغرض تكون إجادتهم، فالكلام إنما هو مظهر تفكير المتكلم والجانب البين لكوامن النفس وخطرات الشعور، ولأجل ذلك فإن العلاقة بين الفكر واللغة وهل هي وعاءه؟ أم مظهره؟ أم هي هو؟ أم منفصلان؟ أم متداخلان؟ قضية تبدو عند مناقشتها في غاية التعقيد وقد أريق فيها - منذ ما قبل التاريخ وحتى الآن - من المداد الكثير، ولكن رغم ذلك فإنه يمكن تقسيم الآراء إلى أربعة⁽¹⁾ وهي: القول بغموض الأمر⁽²⁾ والقول بالفصل بين الفكر واللغة⁽³⁾ والقول بتوحد الفكر واللغة⁽⁴⁾. والقول بالتداخل بين الفكر واللغة⁽⁵⁾

وليس من شأننا في هذا المضمار - بالطبع - أن نبسط الحديث عن تلك الآراء والقائلين بها؛ ولكن مهما يكن

من أمر فإن كل هذه الآراء قد أجمعت على الارتباط الوثيق بين الفكر والتعبير سواء كان هو أم لم يكن.

(2) د. بدوي طبانة: البيان العربي، ط5، 1972م، ص317.

(1) جمال الدين عبد العزيز: جمال المفردات القرآنية ودلالاتها، ص12 (مخطوط).

(2) سلم أصحاب هذا الرأي باستحالة التحديد والبت ولذلك ذهب أرنايم في كتابه التفكير البصري (Visual Thinking) إلى أن ثمة معلومات وفيرة عما يفعله التفكير؛ ولكن القليل هو ما نعرفه عن مسار العملية نفسها، ذلك أن ما يفعله التفكير يتجسد في النهاية في ناتج يمكن معانيته بينما لا يمكن معاينة العملية ذاتها والتي بموجب عملها يفعل التفكير ما يفعله، مما يجعل هناك مسافة تقديرية شبه مجهولة بين العملية وناتجها وهو ما تتم محاولة تجاوزه من خلال إخضاع بعض الفروض للملاحظة دون أن يواجه العلماء العملية ذاتها على نحو مباشر.

(3) يذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن اللغة هي مرآة الفكر أو وعاءه فهي وعاءه لأنها تحملته ومرآته لأنها مظهره، فالأفكار المختلجة في النفوس والمكونة في الصدور تنعكس باللغة فتظهر إلى حيز الوجود، والبليغ من الناس ليس هو الذي يفكر بشكل جيد وإنما هو الذي يعبر عن أفكاره بصورة جيدة، فالعبرة ليست بالتفكير نفسه وإنما بالتعبير الممتاز المطابق له، ولأجل ذلك طرح الجاحظ المعاني (الأفكار) في الطريق، كما ذهب عبد القاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز) إلى الفصل بين الفكر واللغة فصلاً صريحاً؛ إذ أن اللغة - عنده - هي كساء الفكر ووعاءه، ورغم ذلك فإنه يؤكد الصلة الوثيقة بينهما؛ فالألفاظ عنده تبع للمعاني وأوعية لها، فهي لا تحسن - عنده - إلا إذا كان موقعها من العقل حميداً كما أن للفيلسوف الفرنسي برجسون نظرية في عزل اللغة عن الفكر ونفي التوحد بينهما.

(4) ومن أنصار هذا الرأي الوضعيون المناطقة الذين ذهبوا إلى أنه لا ضرورة لافتراض كائن غيبي نسميه بالعقل لكي نفسر به عملية التفكير الذي لا يظهر إطلاقاً إلا في اللغة؛ كما ذهب فنجشتاين إلى أن اللغة هي الفكر نفسه وذهب ستالين في مقاله المشهور (الماركسية وقضايا اللغة) إلى أن من يفصل اللغة عن الفكر فإنه ساقط لا محالة في مستنقع المثالية؛ والمثاليون وحدهم هم الذين يتحدثون عن التفكير غير المرتبط بالمادة الطبيعية المدركة (أي اللغة) ولا شك = أن أصحاب هذا الرأي ينكرون المشكلة ويحاولون تجاؤها؛ وذلك لأجل مسلمات وقرت في الفكر الغربي، إذ أن مفهوم (العلمية) التي حددوا إطارها وفق فلسفة كلية تخشى الخوض في مثل هذه القضايا الميتافيزيقية، وهذه إحدى معضلات الفكر الغربي.

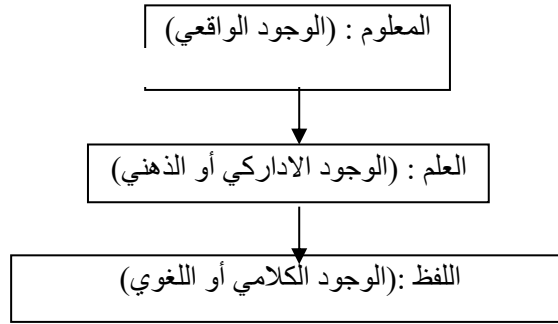
(5) ذهب عالم النفس السوفيتي فيوتسكي إلى أن اللغة والفكر منفصلان ولكنهما يتوحدان ويتداخلان أحياناً حيث تصبح

اللغة فكراً والفكر لغة؛ ويمثل لذلك بدائرتين متقاطعتين.

ولأجل ما سبق من حديث عن الفكر واللغة والارتباط الوثيق بينهما - على اختلاف الآراء - فإن الواقع المعبر عنه والذي يتفاعل معه المتحدث أياً كان هذا التفاعل يكون هو ثالث ثلاثة في هذه القضية ؛ ولهذا يقول أبو حامد الغزالي:

" إن للأشياء وجوداً في الأعيان ووجوداً في الأذهان ووجوداً في اللسان ، أما الوجود في الأعيان فهو الوجود الأصلي الحقيقي ، والوجود في الأذهان هو الوجود العلمي الصوري والوجود في اللسان هو الوجود اللفظي الدليلي ، فإن السماء مثلاً لها وجود في عينها ونفسها ثم لها وجود في أذهاننا ونفوسنا ؛ لأن صورة السماء حاضرة في أبصارنا ثم في خيالنا (ووجود في لساننا هي الحروف الدالة عليها...) فالقول دليل على ما في الذهن وما في الذهن صورة لما في الوجود ... ولو لم يكن وجود في الأعيان لم ينطبع صورة في الأذهان ولو لم ينطبع صورة في الأذهان لم يشعر بها إنسان ولو لم يشعر بها الإنسان لم يعبر عنها اللسان وأذن فاللفظ والعلم والمعلوم أمور متباينة لكنها متطابقة متوازية"⁽¹⁾

ولذلك يمكن تقسيم العناصر الثلاثة كالآتي:



ولكن دعني أطرح سؤالاً بسيطاً متبادراً إلى الذهن وهو:

هل إدراكنا للوجود إدراك تام يسير ماهيته ويتغلغل في أغواره ؟.

وهل ما نعبر عنه بالألفاظ هو صورة مطابقة لما يجيش في صدورنا وما يعتمل في دواخلنا ؟.

هذا إذا علمنا أنّ الكلام ليس مفردات أشتاتاً أو ألفاظاً مرصوفة جاءت كيفما اتفق ، بل من الواضح أننا لا نستطيع أن ندرك من الكلام مقصداً ولا أن نفيد منه معنى إلا إذا ارتبطت كلماته بعضها ببعض وصارت كل لفظة متصلة بالأخرى نوعاً من الاتصال؛ وذلك عند استخدام المتكلم لهذه المفردات - كما سيأتي - وفي ضوء هذه الصلات تكمن المعاني والأفكار التي تحويها النصوص اللغوية وتحفظها في بنائها فكراً حياً وشعوراً نابضاً .

ومن الواضح أنّ الإدراك الإنساني للوجود إدراك محدود بحسب قدرة البشر ، وما التعبير البشري إلا صورة تقريبية لما يختلج في الصدور وما يعتمل في الأذهان؛ ولكن لا شك أن العبارة الممتازة تحمل أنفاس صاحبها ونشي بخفايا هواجسه وتصف أطراف خواطره ، وأن النفس الصادقة في الحس والشعور الممتلئة بالمعاني والأفكار تصوغ العبارة القوية

(1) أبو حامد الغزالي : المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ، مكتبة الجندي ، القاهرة ، 1989 م ، ص 10-11 .

المفعمة التي تنهض بأداء ما تعانيه هذه النفس مما يثقلها من أوزار الفكر وأعباء الشّعور ، وإن كان ذلك بصورة تقريبية ، وليست مفردات اللغة وحدها بقادرة على حمل هذه الأثقال واستيعاب تلك الأطياف، وإنما تستعين اللغة على ذلك بخصائص وأحوال وكيفيات في تركيب الألفاظ وتأليفها من تقديم وتأخير وحذف وعدول وغيره .

ولا شك أنّ البلاغة – في أصلها اللغوي – ما هي إلا الوصول ، فالبلّغ من الناس هو الذي يستطيع الوصول إلى أفكاره ومشاعره بكلامه وحديثه فيعبّر عن ذلك تعبيراً ممتازاً، ومن الخطأ أن نفهم أنّ البلاغة امتلاء الفم بالعبارة ونفخ الأشداق برنين الكلمات الفارغة وفخامة الألفاظ الجوفاء دون فكر ورائها أو شعور ، ويجب أن نعلم أنّ هذا ليس من البلاغة في شيء؛ إذ أن شرطها الأول هو الملاءمة والمطابقة ؛ أي ملاءمة العبارة لحال النفس والفكر والشّعور، وهذه الجعجة وتلك القعقة ليست تعبيراً عن شيء إلا أن تكون تعبيراً عن نفس خربة وفكر ضير .

ولأجل ذلك فإنّ محاولة إدراك الجوانب الفكرية والعلمية والمنطقية في الأعمال الجمالية البشرية وداخل النسيج الفني لهي أمر في غاية التعقيد وما ذلك إلا لتعقيد الجمال الذي لايس هذه الأمور وصار معها كلاً لا يتجزأ وليس ذلك لتعقيد الفكر والعلم والمنطق استقلالاً ، فالأدب تعبير فني جمالي مؤثر والعبارة فيه بالتعبير المبهج الرائق الذي يدل على فكر وشعور ، وهذا الفكر والشّعور لا يندثر داخل الأعمال الجمالية بدثارها الفني البهيج كما أن الأعمال العلمية معقدة أصلاً بتعقيد العلم نفسه ولكونه لا يتأتى إلا بالدربة والمراس والتجربة والتراكم وغيرها وهذه الأعمال العلمية وإن كان الجمال مطلوباً في التعبير عنها ولكنه في الدرجة الثانية وليس بنفس الدرجة المطلوبة في الأعمال الجمالية ذلك لأن العبارة فيها بأغراض الكلام ومقاصده والتعبير الواضح عنها فحسب ، ولاشك أنّ الواقع المتحدث عنه مؤثر في كلا الضربين من الأعمال وإذا كان الأمر كذلك فإنّ القرآن قد أدرك من كلا الأمرين غايتهما فهو مصدر للمعرفة ومعجز بما فيه من حقائق عن الكون والوجود وبما فيه من تشريعات اجتماعية يصلح بها الفرد والمجتمع وذلك فضلاً عما فيه من إعجاز جمالي بلاغي باهر ، ولذلك فإنّ الباحثين في القرآن وعلومه يواجهون أول ما يواجهون القرآن علماً عن عالمي الغيب والشهادة ملاسماً للجمال الإيجازي وليس الأمرين عند تداخلهما بالأمر الهين بادي الرأي .

ولا شك أن المطابقة التامة بين العناصر الثلاثة : المعلوم (الوجود) والعلم (الأفكار) والكلام، ومجيء هذا الكلام المطابق رائقاً مبهجاً يشفّ آذان السامع ويجد في نفسه الرضا التام والقبول – أمر أراه أعسر من العسر في كلام البشر ؛ ذلك أنّ البشر في محاولتهم المطابقة بين أفكارهم أو مشاعرهم وبين تعبيرهم يصيبون تارة ويخطئون تارة – كما سيأتي – ناهيك عن المطابقة بين الوجود وبين إدراكهم ، ولئن كان الجاحظ قد أغفل الوجود وطرح الأفكار ولم يعتد إلا بالتعبير الجميل الرائق فهو إنما كان يخوض معركة بعينها⁽¹⁾ ؛ ويتحدث عن أمر مخصوص هو الشعر ؛ ولا شك أن العبارة في الشعر بالتعبير الرائق المبهج بغض النظر عن أفكاره ، أما الأمر في القرآن العظيم فمختلف ؛ إذ أنّ إعجازه في معانيه وإخباره بالغيب وفي حديثه عن حقائق علمية وفي تشريعاته العظيمة فضلاً عن الإعجاز في لفظه ونظمه وتعبيره الرائق

(1) ذكر الجاحظ هذا الكلام في إطار رده على الشعوبية الذين أخذوا يفضلون الفرس واليونان بأفكارهم على العرب الذين اشتهروا بالفصاحة والبلاغة والعناية بالتعبير .

المبهج إلا أنّ العلماء الأقدمين قد اهتموا بالأسلوب القرآني المبهج وما يدل عليه من معنى ، ولأجل ذلك يقول الإمام الزركشي رحمه الله : "إنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل ومعنى به قائم ورباط لهما ناظم ... وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور في غاية الشرف والفضيلة ... وقد توجد هذه الثلاث على تفرق في أنواع الكلام وإما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه فلم توجد إلا في كلام العليم القدير" (2) .

وهذا كلام جيد؛ لكنه قصر اهتمامه على التعبير الممتاز في القرآن والمعاني الجيدة الدال عليها ، ومعروف بداهة أنّ العناصر الثلاثة آفة الذكر وهي المعلوم والعلم والكلام قد جاءت متطابقة في القرآن العظيم مطابقة لا تكون لبشر بحال ، إذ أنّ خالق عالم الغيب والشهادة الذي أحاط بكل شيء علماً قد أنزل الكتاب تبياناً لكل شيء وجاء كلامه - تعالى - مطابقتاً لكل ذلك كأحسن ما تكون المطابقة ومن أصدق من الله حديثاً؟ وهذا الحديث الإلهي المتفرد هو أحسن الحديث كما ذكر القرآن العظيم.

ولا بد أن نركّز هنا على المطابقة بين المقاصد والتعبير ؛ مستصحبين ذلك العنصر المتعلق بمطابقة الكلام للمعلوم . ذلك أنّ المطابقة بين الكلام والمعلوم (الوجود) من الأهمية بمكان ألا ترى أن الله تعالى قد وعد عباده أن يريهم حقيقة كلامه في (المعلوم) وهو الوجود وذلك في قوله تعالى: [سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق] " فصلت الآية: 53".

ولأجل ذلك جميعه كان لابد من التماس المناسبة بين المقصد الإلهي والتعبير القرآني للوصول إلى الحقائق ولا شك أن المطابقة بين الفكرة الصادقة الممتازة والتعبير المتفرد الرائق شأو من البلاغة عزيز الإدراك ؛ ولما كان الأمر كذلك فإننا في هذا الجانب من البحث سوف نستعرض هذه القضية في القرآن العظيم ؛ كما نستعرض بعض الأعمال الإبداعية لبيان مواضع إصابة البشر ومواضع إخفاقهم في محاولتهم الملائمة بين الغرض والتعبير. إذ أنّه لا بد من الانسجام بين الغرض والموضوع وبين الشعور والتعبير ؛ فإذا انقطعت العلاقة التي تربط بينهما انفرط عقد المفردات وتنافرت ولم تُجدِ الفكرة ولا الشعور ولم يستطع صاحبها الإفصاح عما يختلج في صدره أو يعتل في ذهنه ، فالكلام ما هو إلا اعتمال العقل وخطرات الشعور في صورة لفظية .

ومع أن الفكرة والشعور - اللذين يشكلان المقصد- هما مخ الكلام وبناعدها لا يكون إلا ألفاظاً جوفاء وهرطقة لا معنى لها ، إلا أن التعبير الجيد الذي يطابق تلك الأساسيات الباطنة ركن أصيل في هذا الجانب ذلك لأنّ الكلام لا يقوم إلا بهذين الركنين (جودة النص وجودة المقصد) فإذا اختل أحدهما اختل باختلاله الآخر إذ لا بد من الجمع بينهما بلا إفراط ولا تفريط؛ ولذلك قال الجاحظ :

" المعاني مطروحة في الطريق ، يعرفها العربي والعجمي والبدوي والقروي ، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك" (1).

(2) البرهان ، ج 2 ، ص 101.

(1) الجاحظ : كتاب الحيوان ، ج 3 ، ط/ 3 ، تحقيق فوزي عطوي ، دار صعب ، بيروت ، 1982م ، ص 131.

فكل الناس تعتمل في أذهانهم الأفكار وتجيش في صدورهم المشاعر ، ولكن المبدع هو الذي يملك أدوات التعبير من صحة الطبع التي هي الموهبة واختيار اللفظ المناسب والقدرة على صياغة الأفكار وسبك المفردات وتحويل المعاني الذهنية إلى عمل فني محس ، فإذا انعدمت تلك الأدوات كانت المعاني فكراً بارداً ، ليس فيه من إشعاعات الألفاظ وحلاوتها وظلالها ما يجعله عملاً فنياً متكاملًا ؛ ولذلك قال عبد القاهر :

"اعلم أنّ الداء الدوي والذي أعيب أمره في هذا الباب ، غلط من قدم (القول) بمعناه وأقل الاحتفال باللفظ ؛ فجعل لا يعطيه المزية لأننا لا نرى متقدماً في البلاغة مبرزاً في شأوها إلا وهو ينكر هذا الرأي ويزري على القائل به ويغض منه"⁽²⁾.

ولأجل ذلك عاب الجاحظ على أبي عمرو الشيباني استحسانه بيتين تضمنتا فكرة رائعة وتعبيراً سخيلاً وهما⁽³⁾.

لا تحسبن الموت موت البلى إنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ، ولكن ذا افضع من ذا ؛ لذل السؤال

ومثل ذلك قول المتنبي :

إنما تنجح المقالة في المرء إذا صادفت هوى في الفؤاد

أما إذا قويت الرابطة بين المقصد والتعبير وأضفى الشعور على الألفاظ ظلالاً وصوراً نابضة منسجمة آخذاً بعضها بحجز بعض ؛ كان كل لفظ ومعنى جزئي دالاً على الفكرة العامة؛ انظر إلى قوله تعالى مثبتاً فؤاد موسى حينما أحس الخوف يملأ أقطار نفسه بعدما ألقى السحرة حبالهم وجاءوا بسحر عظيم : [لا تخف إنك أنت الأعلى] " طه الآية :68 " . ألا ترى كيف طابق بين المقصد الذي هو تثبيت فؤاد موسى وبين التعبير ، حتى جاءت كل لفظة مسخرة لأجل المعنى دون زيادة أو نقصان، وانظر كيف بدأ بـ(لا) ناهياً عن الخوف ، ثم اتبعها (إن) المشددة ؛ لتأكيد الأمر وتقرير ثبوته، ثم أسند (إن) إلى ضمير المخاطب حتى يتنبه موسى إلى ما يأتيه من عون الله ونصره ، ثم أكد هذا الضمير المتصل بالمنفصل (إنك أنت) ؛ ليؤكد تخصيصه بالقهر والغلبة : فأنت وحدك الغالب يا موسى لا هم وإن استرهبوا الناس وجاءوا بقضهم وقضيضهم ؛ فما هو إلا كيد ساحر.

أما قوله (الأعلى) ففيها من البلاغة وعظم الشأن ما يجعل البلغاء يغضون الطرف حياءً : فلام التعريف فيها تفيد الاختصاص ؛ أي : اختصاص موسى بالعلو والغلبة ؛ فليفرخ روعك يا موسى وليطمئن قلبك بنصر الله فأنت وحدك الغالب رغم ما ترى من عظم سحرهم وبراعتهم فيه. وجاء بهذا اللفظ (الأعلى) على وزن (أفعل) التي تفيد

(2) عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، تحقيق محمد رضوان الداية ، 1983م ، ص 256.

(3) الحيوان : ج 3 ، ص 131.

الزيادة والمبالغة في العلو ، وعدل فيه عن لفظ (الغلبة) إلى العلو ، دلالة على القهر والغلبة بالفوقية والسمو لا بالمساواة التي يفيدها لفظ الغلبة المجرد ، فأين هم منك يا موسى؟

وإذا تأملت الجملة كلها وجدت أن الله قد نهاه عن الخوف بقوله (لا تخف) ، ثم استأنف الجملة التي تليها في سرعة بغير حرف عطف بين الجملتين وذلك أكثر تأكيداً للمعنى وأبلغ في شرح صدر موسى وأقرّ لعينه⁽¹⁾.

فالتناسب والانسجام بين التعبير وبين الأغراض والمقاصد هو أصل الجمال ؛ إذ أنّ التعبير هو الأسرار والدقائق التي تعتمل في العقل وتحيش في الصدور وكلما كانت العلاقة أكثر تناسباً واشتدت المطابقة كان الكلام أحسن شكلاً وأجمل تعبيراً وأدق معنى ، وليس المقصود هنا الدقة في نقل الفكرة وتحويلها إلى تعبير ، كما يحدث في الحقيقة الذهنية المجردة التي يمكن التعبير عنها في صور مختلفة دون أن تنقص مقاصدها ، وإنما المقصود هو الفكرة التي يكتنفها الجمال ، وهنا - فقط- ينهياً للألفاظ نظام ونسق وجو يسمح لها بأن تشع أكبر شحنة من الصور والظلال .

ولا شك أن من مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، ذلك الأثر الذي يجده الكلام في نفس المتلقي ومراعاة حاله ؛ فلا عبرة بشرف المعنى واللفظ المتطابقين إذا لم يقعا موقعهما المناسب في نفس السامع ؛ فليس البلاغة مخاطبة الناس بما لا يفهمون ؛ كمن ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً ؛ وإنما لكل نوع من الناس جنس من الكلام يختلف عن الآخر ؛ فينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار السامعين والحالات ؛ فيجعل لكل ذلك كلاماً . وهذه المطابقة هي التي تلقى في النفس رضاً وقبولاً ؛ وهي علة التأثير ، ولا تتحقق تلك الغاية إلا إذا كان الكلام يستطيع أن يفهمه من يسمعه فيعيه ويتدبره ويتأثر به ويشارك صاحبه فيما عبر عنه من فكر وعاطفة وانفعال ؛ ولعلك ترى ذلك واضحاً في القرآن العظيم حيث تتناسب الصياغة مع المضمون ، ويناسب ذلك كله حال السامع ؛ فالسورة المكية التي تخاطب الكافرين المعاندين وتدعوهم إلى الإيمان ابتداءً وتميز بالوعيد والترهيب وقصر الفواصل وتتابعها وقوة الألفاظ وجزالتها كأنها تفرع الصخر الأصم والقلوب المتحجرة في صدور المنكرين - غير تلك المدنية التي تمتاز بسهولة الألفاظ وطول الفواصل وكثرة المفردات والاسترسال ؛ وذلك لأنّ المدنية تخاطب المؤمنين بعد استقرار دولتهم في المدينة وتجادل أهل الكتاب ؛ وكلا الفريقين ذو علم وذو خلفيات دينية سابقة ؛ فهي للتوجيه والإرشاد والمجادلة وليس لدعوة الكافرين إلى التوحيد ابتداءً ؛ فانظر إلى مراعاة التعبير لأحوال السامعين المعنيين بالخطاب الإلهي الفريد .

ولا شك أنّ معرفة الحال والمقام من أكثر الأمور أهمية في هذا المضمون ذلك لأنّ الحال من أكثر الأمور إيضاحاً للمعنى وإظهاراً للدلالة بشكل دقيق ، وما القرائن اللفظية المستفادة من الخطاب في هذا الشأن إلا وسيلة أولية في تعيين المعنى المقصود ولذلك يعتبر الإمام الشاطبي المقام أصل علم البلاغة (المعاني والبيان) لأنّ مدارهما على معرفة "مقتضيات الأحوال : حال المخاطب من جهة نفس الخطاب أو المخاطب والجميع.... كالأمر يدخله معنى الإباحة

(1) العلوي: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، 145/1. ط/دار الكتب ، 1980م.

والتهديد والتعجيز وأشباهاها ولا يدل على معناه المراد إلا الأمور الخارجية وعمدتها مقتضيات الأحوال"⁽¹⁾. ولا شك أنّ من شأن الواقف على المقام تجنب الأغلط الفقهية والتفسيرية .

ولا شك أنّ الخطاب القرآني متعدّد الاحتمالات فهو حمال أوجه وفضاء نصي مفتوح فإذا ترك الحبل فيه على الغارب لقال فيه من شاء ما شاء ولكثرت المعاني المستنبطة وتعدّدت جهات النظر . ولا شك أنّ المضمّار هنا مضمّار من كان أقدر على نصب العلامات الدالة على المراد فهو الأكثر إقناعاً والأوضح برهاناً ، ولا شك أن الغاية التي يسعى إليها الناظر في نصوص الشريعة هي تحديد المعنى المقصود حتى يستطيع التفقه فيها تفسيراً وتعليلاً واستدلالاً وهذا يستدعي المعرفة بمقام الخطاب وعادات العرب في أقوالها ومجاري عاداتها ولذلك يقول الشاطبي " لا بد لمن أراد الخوض في علم القرآن والسنة من معرفة عادات العرب في أقوالها ومجاري عاداتها لأنّ الجهل بها موقع في الإشكالات التي يتعذر الخروج منها إلا بهذه الطريقة"⁽²⁾ .

ولا شك أنّ المقصد المكنون في نفس القائل يكون في وعاء من مفردات اللغة ؛ وليست هذه المفردات إلا رموزاً تشير إلى الغرض عندما يتم إفراغه فيها بنمط معيّن وطريقة مخصوصة من النظم ، وذلك يتطلب تحليل هذه الرموز و المعاني والصور والظلال المشتملة عليها ، ولا شك أن انتقال المعاني والظلال والصور من القائل إلى السامع من شأنه أن يصيبها بشيء من التفاوت بين حقيقتها لدى قائلها وبين صورتها التي تحصل عند السامع أو يجعلها على الأقل قابلة لذلك ؛ ذلك أنّ مفردات اللغة في حقيقتها الرمزية لا تحمل المعاني ولا تؤديها في كثير من الأحيان إلا على سبيل الظن ، ولأجل ذلك فإنّ محاولة إدراك الغرض من خلال التعبير ليس بالأمر الهين الذي يتم بصورة آلية يكفي فيها التحري من ملازمة ظاهر القوانين اللغوية ؛ بل هي أعقد من ذلك بكثير ؛ ولأجل ذلك عاب ابن القيم على النصيين خطأهم المنهجي في اكتفائهم بظاهر النص قائلاً "فكم من حكم دل عليه النص ولم يفهموا دلالاته عليه وسبب هذا حرصهم على الدلالة في مجرد ظاهر اللفظ دون إيمانه وتنبهه وعرفه عند المخاطبين" ولاشك أنّ الحقيقة التي لا يماري فيها أحد هي أنّ الأسلوب القرآني قد جاء مطابقاً للمقاصد الإلهية كأحسن ما تكون المطابقة ، وهذه المقاصد والأغراض هي ما سماه علماء الكلام بالمعنى القائم بالنفس⁽¹⁾ ، وهي لا يمكن إدراكها إلا بمحاولة تحليل الألفاظ القرآنية من حيث ظلالها وجوانبها الصوتية والمعجمية والصرفية والنحوية التركيبية؛ وهذه الجوانب - على أهميتها القصوى - ليست كافية لإدراك المقاصد الإلهية ، ذلك أنّ ملازمة ظاهر النص ربما أدت إلى غير المراد ؛ وذلك كأن يأتي اللفظ عاماً ويراد به الخصوص ؛ كما أن بعض الآيات لا يمكن إدراك أغراضها إلا بالنظر إلى أسباب نزولها ؛ وإن كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فمعرفة أسباب النزول معينة على إدراك المعنى ؛ ولكن من الخطل تقييد الآيات بأسباب نزولها بحيث لا تتعداها إلى غيرها، ولذلك فإنّ

(1) الشاطبي: الموافقات، ج3 ، ص 347 .

(2) نفس المصدر .

(1) انظر مقالات الإسلاميين : الأشعري 247/9 تحقيق محمد محي الدين ، نهضة مصر .

معرفة أسباب النزول خير سبيل لفهم معاني القرآن وكشف الغموض الذي يكتنف بعض الآيات فيه ؛ ولذلك قال الواحدي :

" لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان سبب نزولها"(1)

وقال ابن تيمية: "معرفة سبب النزول تعين على فهم الآية فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب"(2)

وقال ابن دقيق العيد: "بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن"(3) .

ولأجل ذلك اعتنى الباحثون في علوم القرآن بمعرفة سبب النزول فأفرده جماعة منهم بالتأليف ومن أشهرهم على بن المديني شيخ البخاري ، ثم الواحدي في كتابه (أسباب النزول) ، ثم الجعبري ، ثم شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني ، ثم السيوطي في كتابه (الباب المنقول في أسباب النزول).

وحتى لا تكون دعوانا تلك بلا دليل انظر إلى قوله تعالى:

[لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب

أليم] آل عمران آية: 188 "

فلا شك أنك فهمت الأمر على إطلاقه من ظاهر النص كما فهمه ابن مروان ؛ فقد روي عنه أنه قال ليوابه : اذهب يا

رافع إلى ابن عباس فقل: لئن كان كل امرئ يفرح بما أوتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل يعذب لتعذبين أجمعون ؛ فقال ابن

عباس : مالكم ولهذه الآية إنما نزلت في أهل الكتاب(4) .

(1) مباحث في علوم القرآن ، مكتبة وهبة القاهرة ، 1990م ، ص 77-78.

(2) المصدر نفسه .

(3) المصدر نفسه .

(4) رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

كما أنّ من الضوابط لإدراك الأغراض والمقاصد الإلهية في الآيات قاعدة العموم والخصوص⁽¹⁾ ، ودلالة الاقتضاء⁽²⁾ ودلالة الإشارة⁽³⁾ ومفهوم الموافقة⁽⁴⁾ ومفهوم المخالفة⁽⁵⁾ ، وكل هذه القواعد والضوابط إنما وضعت لمحاولة إدراك الأغراض الإلهية بمحاورة النص في سبيل الإمساك بمعانيه والظفر بلطائفه وأسراره وهو أمر ليس باليسير الهين بادي الرأي ، ولأجل ذلك فإنّ هذه الضوابط تشكّل أطراً عامة يتحرك فيها الفهم بحيث لا يشطح أو يزل أو يحمل الآيات إلى غير ما أريد منها وهذه الأطر تنضبط بأطر أوسع منها وهي المقاصد الأكثر عمومية ، غير أن من أكثر الأمور أهمية في هذا المضممار قضية (التناسب الداخلي للقرآن) التي بها تدرك الأغراض والمقاصد وتتبدى كثير من القضايا والقواعد التي ذكرنا ، كما أنها من أهم سمات الإعجاز القرآني؛ إذ أنها تجعل القرآن وحدة متكاملة آخذاً بعضها بحجز بعض ، وهذا التناسب علم شريف ذكره الباحثون في علوم القرآن عرضاً ولم يمسه إلا مساً رقيقاً غير متطرقين لأغواره وجوانبه العميقة ، وقد انفرد بدراسته بعض الباحثين في إعجاز القرآن وعدوه أصل البلاغة والإعجاز كما سيأتي .

التناسب الداخلي :

سبق أنّ للمتكلم مقاصده وأهدافه التي يرمي إليها من خلال كلامه ؛ وهذه المقاصد إنما تظهر بدلالة الكلام عليها ؛ فالكلام حين يصاغ بنمط معيّن وطريقة مخصوصة إنما يبدي هذه المقاصد ويظهرها للمتلقّي ؛ ويقدر دقة الفكرة تكون دقة النظم في الكلام ؛ فرب كلمة حولت من مكانها أو قدمت أو أخرت فأفاد الكلام غير ما يفيد والكلمة في موضعها المعتاد؛

(1) العام هو اللفظ المستغرق لما يصلح له من غير حصر ، فقد يكون اللفظ عاماً والمعنى مخصوصاً ومن ذلك قوله تعالى [فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب ..] آل عمران 39 ، والمقصود بالملائكة جبريل . ومنه كذلك قوله تعالى [ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس] البقرة 199 والمقصود بالناس إبراهيم عليه السلام .

(2) دلالة الاقتضاء أن تتوقف صحة دلالة الألفاظ على الإضمار (الحذف) ومن ذلك قوله تعالى [فمن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر] البقرة 184 وليس معنى الآية - كما يبدو من ظاهر اللفظ - أن كل من سافر أو مرض فعليه أن يصوم يوماً أخرى ، وإنما المقصود : فمن كان مريضاً أو على سفر فافطر فعليه عدة من أيام أخر فاضمر لفظ (فافطر) وهو سبب القضاء .

(3) من ذلك قوله تعالى: [أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل] البقرة 187 فإنه تعالى أباح الوطء حتى طلوع الفجر وهو يستلزم الإصباح على جنابة، وإباحة سبب الشيء وإباحة للشيء نفسه.

(4) في مفهوم الموافقة انظر إلى قوله تعالى عن الوالدين: [ولا تقل لهما أف ولا تنهرهما ..] الإسراء 23 ولما حرم الله تعالى قوله (أف) فإنه من باب أولى أن يحرم الضرب والشتم من خلال موافقة ما هو أشد لما ذكر . ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : [إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً ..] ولما حرم الله أكل أموال اليتامى فإنه من باب أولى قد حرم إحراقها وإتلافها .

(5) مفهوم المخالفة هو ما خالف حكم المنطوق في الآية: انظر إلى قوله تعالى: [يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ..] الحجرات 6 وتقتضي الآية معنى : إذا جاءكم غير فاسق بنبأ فلا تتبينوا ؛ ولذلك فإنه يجوز قبول خبر الواحد العدل.

ورب كلمة حذف أو أضيفت أو عدل بها عن النمط المعتاد بأي شكل من أشكال العدول فأفاد الكلام ما لم يكن ليفيده لولا ذلك ؛ فالكلام يتعلّق بمقاصده كأشد ما يكون التعلّق ؛ فإذا ما أهمل المتلقّي هذه المقاصد غاص في ظاهر اللفظ وحمل الكلام من المعاني ما لا يحتمل أو فهمه على غير وجهه المراد ؛ وكذلك الأمر إذا صوّب بفكره ناحية المقصد الذي توهمه ولم يراع مقصد المتكلم من كلامه تحديداً ؛ فلا بد إذن من الموازنة والربط بين النص ومقصده ؛ فباستبار المقصد تتبين من الألفاظ دقائق المعاني ؛ ومن خلال مراعاة تركيب النص الدقيق يبدو مقصد الكلام أشدّ وضوحاً وإشراقاً ؛ فهذه العلاقة التبادلية من شأنها أن تكسب الجانبين دقة فيكون العقل أحسن توجيهاً وأكثر إدراكاً .

ولا شك أنّ علاقة المتكلم بالألفاظ المفردة (في اللغة) أشبه ما تكون بعلاقة الصانع بمادته الخام ، فالمادة الخام هي مادة لم يخلقها الصانع ، وإنما يعيد تشكيلها وفق تصور خاص وتصميم بعينه ، وإنّ كل ما يفعله المتكلم في مفردات اللغة هو أنه يقيم علاقات بينها ، يتوخى فيها معاني النحو وينظمها لتؤدي غرضاً خاصاً ومقصداً معيناً .
وهذه العلاقات التي تربط بين المفردات هي التي تشكّل المعنى وظلاله الزائدة التي يحسها السامع ولا يكاد يصفها ، وكلما اشتدت هذه العلاقات وكانت المفردات متماسكة منسجمة كان الكلام أكثر تناسبا وجمالا ، وذلك هو جوهر الإبداع والإعجاز .

وقد لخص عبد القاهر علاقات الكلم الجارية على قانون النحو التي يكون بها النظم في قوله: "الكلم ثلاث: اسم وفعل وحرف وللتعلّق فيما بينها طرق معلومة وهي لا تعدو ثلاثة أقسام: تعلق اسم باسم وتعلق اسم بفعل وتعلق حرف بهما"⁽¹⁾. واحتمالات تولد الجمل من خلال هذه الأقسام لا نهائية فالاسم يتعلّق بالاسم : بأن يكون خبراً عنه أو حالاً منه أو تابعاً له صفة أو توكيداً أو عطف بيان أو عطف بحرف أو بدلاً أو بأن يكون الأول مضافاً إلى الثاني أو بأن يعمل الأول في الثاني عمل الفعل ويكون في حكم الفاعل له أو المفعول أو بأن يكون تمييزاً قد جلاه منتصباً من تمام الاسم .
أما تعلق الاسم بالفعل : بأن يكون فاعلاً له أو مفعولاً أو يكون مصدرأ قد انتصب به أو ظرفاً مفعولاً فيه زماناً أو مكاناً أو مفعولاً معه أو مفعولاً له أو أن يكون منزلاً من الفعل منزلة المفعول ؛ وذلك في خبر كان وأخواتها والحال والتمييز .
أما تعلق الحرف بهما فعلى ثلاثة أضرب : أحدهما : أن يتوسط بين الفعل والاسم .

والثاني: تعلق الحرف بما يتعلّق به العطف ، والثالث : تعلق بمجموع الجملة ؛ كتعلق حرف النفي والاستفهام والشرط والجزاء بما يدخل عليه .

وهذه هي الطرق – تعديداً – في تعلق الكلم بعضها ببعض، وهي ليست سوى معاني النحو وأحكامه، والارتباط بينهما أمور باطنية يجريها العقل؛ ولذلك فإنّ المتكلم ينتقي منها ويختار ما يشير به إلى فكرته التي يود التعبير عنها. ويمكن أن نعيد تشكيل الجملة عند الجرجاني تشكيلاً جديداً لا يصعب فهمه على غير المتخصص وذلك على الوجه التالي:⁽¹⁾

(1) دلائل الإعجاز ، ص 267-268 .

(1) مجلة فصول : النحو بين عبد القاهر وتشو مسكي ، ص 32

- 1- اسم + (اسم + خبر)
- 2- اسم + (اسم + حالية)
- 3- اسم + (اسم + تبعية)
- 4- اسم + (اسم + إضافة)
- 5- اسم + (اسم + تمييز)
- 6- (اسم + اشتقاق) + (اسم + فاعلية + مفعولية)
- 7- فعل + (اسم + فاعلية)
- 8- فعل + (اسم + مفعولية)
- 9- فعل + (اسم + سببية)
- 10- فعل + اسم + مصدرية)
- 11- فعل + (اسم + معية)
- 12- فعل + (اسم + ظرفية)
- 13- (فعل + نسخ) + (اسم + خبرية)
- 14- فعل + (اسم + حالية)
- 15- فعل + (اسم + تمييز)
- 16- فعل + (اسم + استثناء)
- 17- فعل + حرف + اسم
- 18- اسم + حرف + اسم
- 19- حرف + جملة

فهذه الاحتمالات التجريدية التي رصدها عبد القاهر ينضاف إليها عدة ملاحظات لها أهميتها في مجال تنظيم الصياغة وهي: أن هذا التشكيل التجريدي يتسع مداه بإدخال عناصر إضافية على تكوين الجملة كالأفراد والتنثنية والجمع والتعريف والتكثير والتقديم والتأخير والحذف والتكرار والإضمار . وهذا التشكيل لا يقوم على مجرد ضم كلمة إلى أخرى كيفما جاء واتفق وإنما يقوم على التعلق بمراعاة حال الكلام بعضه ببعض من خلال تناسق الدلالة وتلاقي المعاني على الوجه الذي يقتضيه العقل. ويمتد هذا التشكيل إلى حركة الصياغة في كل اتجاهاتها كالنسيج الدقيق الذي لابد في إدراك دقته من مراقبة حركة خيوطه جيئة وذهاباً طويلاً وعرضاً وبم يبدأ وبم يثني وبما يثالث من خلال الحساب الدقيق. وليس لهذا التشكيل جبرية في ترتيب ألفاظه وتعليق الكلم بعضها ببعض وإنما تأتي هذه الجبرية من خلال النسق الذي يرتبط بهدف دلالي محدّد بحيث إذا اكتسبت بعض العناصر طبيعة نحوية معينة ترتب على ذلك نوع من التعلق ذي طبيعة حتمية مثلاً :

- 1- (مبتدأ + تعريف) + (خبر + تنكير) حكمه: جواز التشريك بالعطف ؛ إذ يمكن أن نقول: زيد منطلق وعمرو .
2- (مبتدأ + تعريف) + (خبر + تعريف) حكمه: امتناع التشريك بالعطف ؛ فإنه لا يجوز أن نقول: زيد المنطلق وعمرو .

وهذا الامتناع أو الجواز إنما يرجع إلى الدلالة النابعة من حركة العقل؛ ذلك أن المعنى مع تعريف الخبر على إرادة إثبات انطلاق مخصوص قد كان من واحد؛ فإذا ثبت لزيد لم يصح إثباته لعمرو⁽¹⁾.

وذلك التعلُّق الذي ذكرنا لا يكون -أصلاً- بالكلمة المفردة ؛ وما ورد في اللغة على هذا النحو يجب رده إلى المستوى العميق لإدراك طبيعة التعلُّق فيه ؛ ففي نحو: (يا عبد الله) فإنها ليست كلمة مفردة ؛ إذ يقتضي التحقيق تقرير الفعل المضمر (أعني ، وأريد ، وأدعو)⁽¹⁾.

ولاشك أن المفردات لا يتضح معناها أو تبين دلالاتها إلا داخل النظم وإذا أردت دليلاً بيناً على ذلك فانظر إلى هذه المفردات (الأصم ، الكريم - شك - ثيابه - محرم) فإنه يمكنك أن تقول:

الأصم : الذي لا يسمع

الكريم : المعطاء

شك : ضده أيقن

ثيابه : ما يلبسه من الملابس يستتر به جسده

محرم : التحريم ضده التحليل

ولكن رغم ذلك انظر إليها في قول عنتره :

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم

فشك في البيت : تفيد الطعن بالرمح ، والأصم : الصلب الذي لا تجاوب فيه ولا ينكسر ، وثيابه: جسده ؛ ومثله قوله تعالى: [وثيابك فطهر] أي جسديك ، والكرم هنا أقرب إلى الرفعة والشرف منه إلى العطاء، ومحرم : مستحيل وممتنع. ألا ترى كيف تغيرت دلالات المفردات تغيراً كاملاً عند النظم وعند تعلقها ببعضها فأفادت معانٍ أخرى غير تلك التي توقعها السامع حال انزعالها عن النظم وانسلاخها عن السياق .

ولذلك لم يعتد عبد القاهر الجرجاني بجمال المفردات أو دلالاتها ومعانيها حال انفصالها عن التعبير ، وإنما نظر إليها من خلال السياق ، ولا اعتداد عنده بالكلمة إلا من حيث موقعها من النظم ، وهذا هو وجه التفاضل بين المفردات ، فجمال المفردة ومعناها إنما يكون من حيث مكانها من النظم وفضل مؤانستها لأخواتها ، لا من حيث كونها مألوفة أو غريبة

(1) انظر دلائل الإعجاز ، ص 77 ، 81 ، 78 ، 93 ، 118 .

(1) المصدر السابق ، ص 197 .

أو حروفها أخف وامتزاجها أحسن، أما قبح المفردة وبشاعتها - عنده - فهو سوء تلاؤمها وقلقها ونبوها عن أخواتها⁽¹⁾ ، فلا اعتداد بالمفردات ولا معنى لها حال انعزالها وتخليها عن علاقاتها وشائجها التي تربطها ببقية المفردات ، فمدار الجمال والمعنى ليس في الأجزاء المفردة وإنما في تناسب تلك المفردات وانسجامها .

وهذا التناسق والانسجام بين المفردات من أعظم مدارات التحدي والإعجاز الإلهي في القرآن العظيم وأكثر السمات تمييزاً للقرآن عن غيره ، كما قال تعالى :

[أفلأيتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً] "النساء آية : 82"

وبمفهوم المخالفة - كما يقول الأصوليون - فإن الآية تقرّر أنّ القرآن لما كان من عند الله فقد وجدوا فيه تناسقاً عجبياً لا يستطيع الفصحاء والبلغاء الإتيان بمثله في النظم وفي ارتباط الكلم بعضها ببعض ، وهذا هو جوهر الإعجاز الذي تحدى الله به العباد ، وإن كانت الألفاظ المجردة والمفردات غير المتلاحمة متوافرة في اللغة متيسرة لديهم ، وإنما تعذر الإتيان بمثله لأن علمهم لا يحيط بجميع مفردات اللغة وأوضاع هذه المفردات التي هي حوامل للمعاني ، ولا تكمل معرفتهم في استيفاء وجوه النظم التي يكون بها ارتباطها وانتلافها ، حتى يوفقوا إلى اختيار الأفضل والأنسب حتى يأتيوا بكلام مثله ، علماً بأن مفردات اللغة لا تترادف ولا تتطابق تطابقاً تاماً حتى يغني بعضها عن بعض كما سيأتي ، وإذا أردت دليلاً بيّناً في هذا الوجه من الإعجاز ؛ فانظر إلى قوله تعالى :

[وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء واستوتت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين]

هود الآية : 44 .

ألا ترى أنّ الإعجاز الذي ترى وتسمع والمزية الظاهرة والفضيلة الباهرة قد كانت لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم ببعضها ، ولا شك أن الحسن والشرف لم يظهر إلا حيث لاقت اللفظة الأولى الثانية ، والثانية الثالثة ، والثالثة الرابعة وهكذا إلى أن استقرت بها إلى آخرها ، ولا شك أنّ الفضل ناتج بينها وحصل من مجموعها .

وإن شككت فتأمل : هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية؟ قل (ابلعي) اعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وما بعدها ، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها ، وكيف بالشك في ذلك ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض ، ثم أمرت ، ثم في أن كان النداء بـ(يا) دون (أي) نحو (يا أيتها الأرض) ثم في إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال : (ابلعي الماء) ، ثم اتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها - نداء السماء وأمرها بما يخصها ، ثم قيل : (وغيض الماء) فجاء الفعل على صيغة (فعل) الدال على أنه لم يغض إلا بأمر أمر وقدرة قادر ، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله : (وقضي الأمر) ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو (استوتت على الجودي) ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ، ثم مقابلة (قيل) في الخاتمة (قيل) في الفاتحة. ثم يقول عبد القاهر تعليقا على ذلك : "أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملوك بالإعجاز روعة وتحضرك

(1) دلائل الإعجاز ص 39 .

عند تصورها هيبية تحيط بالنفس من أقطارها تعلقاً باللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى في النطق؟ أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب؟⁽¹⁾.

والجواب على ذلك هو أن الاتساق العجيب والتناسق البديع بين مفردات الآية الكريمة هو الذي جعل فيها روعة وشرفاً لا تجده في سواها ، وليس هذا التناسب قاصراً على معاني الألفاظ ودلالاتها - كما قال عبد القاهر - وإنما يمتد ليشمل كل الجوانب الأخرى ، كالجانب الصوتي الذي يشكل الإيقاع الموسيقي ، والظلال التي تشع من خلال هذه المفردات بما تحويه من تشكيلات صوتية ومعجمية وصرفية. فالكلام أنواع وأجناس ، ولا بد أن تتناسب مفرداته من كافة الجوانب ، وإذا بلغ هذا التناسب قمته أفضى بنا إلى قمة لا يستطيعها البشر .

وهذا التناسب الداخلي من شأنه أن يمنح المفردات ودلالاتها مكانة ذاتية وسمات جمالية خاصة حتى أنه قد تتعدّد دلالات المفردة من موضع إلى آخر ، ولذلك لم يعتد عبد القاهر بجمال المفردات ودلالاتها إلا داخل النسيج النظمي، وهذا الاختلاف البين بين دلالات المفردة الواحدة إنما هو أمكنة ذاتية خاصة أكسبها إياها النظم ، وليس معنى ذلك بالطبع أنه ليس من رابط بين الاستخدامات المختلفة للمفردة الواحدة داخل النسيج النظمي القرآني، وإذا أردت دليلاً على اختلاف الدلالات للمفردة الواحدة فانظر مثلاً إلى لفظ (الوحي) داخل النظم القرآني حيث جاءت بمعان تختلف اختلافاً بيناً من موضع إلى آخر :

أولاً: الدلالة على الإلهام الفطري للإنسان؛ ومنه قوله تعالى : [وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه] " القصص الآية: 7"
 ثانياً: الدلالة على الإلهام الغريزي للحيوان؛ ومنه قوله تعالى : [وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذني من الجبال بيوتاً ومن الشجر...] " النحل الآية: 68" .

ثالثاً: الدلالة على الإشارة على سبيل الرمز؛ ومنه قوله تعالى - عن زكريا عليه السلام - : [فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوه بكرة وعشيّاً] "مريم الآية: 11"

رابعاً: الدلالة على وسوسة الشياطين وتزيين الشر؛ ومنه قوله تعالى : [وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم] " الأنعام الآية: 121 "

خامساً: الدلالة على ما يلقيه الله إلى الملائكة؛ ومنه قوله تعالى : [إذ يوحى ربك إلى الملائكة] " الأنفال الآية: 12"
 سادساً: الدلالة على ما يلقيه الله إلى الرسل من الأنبياء بطريقة معروفة مخصوصة؛ ومنه قوله تعالى : [ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك] " آل عمران الآية: 44" . وهذه المفردات قد استخدمت في النسيج النظمي بطرق مخصوصة أدت إلى اختلاف المعاني بينها؛ إذ لكل تركيبية ونسيج نظمي خصوصيته؛ حيث أن البنية النظمية مجموع مركب

(1) دلائل الإعجاز ، ص 36 .

من مكونات مترابطة ومعقدة تقوم على الوحدة الداخلية من خلال العلاقات المتبادلة بين الأجزاء؛ وهذا شأن كل عمل بليغ؛ ولذلك يقول موكار فسكي في مقاله (اللغة المعيارية واللغة الشعرية): " أن اللغة الفنية لها معجمها

الخاص ومصطلحها"⁽¹⁾

وإذا أردت دليلاً على عدم قصور التناسب على الجانب المعنوي - لا كما قال الجرجاني - ، فارجع البصر إلى نظم الآيات القرآنية تجد أن التناسب قد كان في الجانب الصوتي أيضاً كما كان في الجانب المعنوي وتجد أن اللفظ الفخم الجزل قد جاء مع أضرابه من الألفاظ الفخمة الجزلة التي تشكّل نظم الآية وكذلك العكس ، انظر إلى قوله تعالى:

[قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً] " يوسف الآية : 85"

فإنه سبحانه لما أتى بأغرب ألفاظ القسم بالنسبة إلى أخواتها وهي (التاء) في قوله (تالله) وهي أقل استعمالاً وأبعد عن أفهام العامة ، والباء والواو أعرف عند الكافة وهما أكثر دوراناً على الألسنة وأكثر استعمالاً في الكلام - فقد أتى سبحانه - هنا - بأغرب صيغ الأفعال التي ترفع الأسماء وتنصب الأخبار بالنسبة إلى أخواتها ، وكذلك فإن (كان) وما قاربها أعرف عند الكافة من (تفتأ) وكذلك لفظ (حرضاً) أغرب من جميع ألفاظ الهلاك الأخرى ، فاقتضى حسن الوضع أن تجاور كل لفظة بلفظة من جنسها في الغرابة أو الاستعمال توخياً لحسن الجوار وحتى تتعادل الألفاظ في الوضع وتتناسب في النظم ، ألا ترى أنه عز وجل قال في غير هذا الموضع : **[وأقسموا بالله جهد أيمانهم] " النحل آية 38"**. وذلك أنه لما كانت جميع ألفاظ هذا الكلام المجاورة لهذا القسم كلها مستعملة متداولة - فإنه لم تأت فيها لفظة غريبة تفتقر إلى مجاورة ما يشاكلها في الغرابة ويلائمها. وانظر كذلك إلى التناسب الدلالي الدقيق بين مفردات قوله تعالى : **[ولا تركزوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار]** " هود آية: 113 ". فإنه لما كان الركون إلى الظالم دون فعل الظلم وأقل منه ؛ وجب أن يكون العقاب عليه دون العقاب على الظلم ؛ فمس النار في الحقيقة دون الإحراق وأقل ؛ ولما كان الإحراق عقاباً للظالم أوجب العدل أن يكون المس عقاب الرّاكن إلى الظالم ، فلهذا عدل عز وجل عن أن يقول : **[ولا تركزوا إلى الذين ظلموا فتدخلوا النار]** مثلاً ، لكون الدخول مظنة الإحراق ، وخص المس ليشير به إلى ما يقتضي الركون من العقاب ويميز بين ما يستحق الظالم وبين ما يستحق الرّاكن إليه من العقاب ، والمس هو أول ملاقة الجسم لحرارة النار ⁽¹⁾

وليست قضية التناسب هذه قاصرة على تناسب مفردات الجملة الواحدة وانسجامها، بل لابد من مناسبة الجملة التي تكونها هذه المفردات مع الجملة التي تليها بصورة تنتظم كل العمل الإبداعي ؛ حتى تتحقق بذلك الوحدة العضوية التي تجعل العمل إبداعاً متكاملماً وأجزاء متماسكة وكلاً لا يتجزأ ، فإذا انتفت هذه الوشائج صار العمل متنافر الأجزاء متفكك البناء . فالقرآن على اختلاف ما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة يجعل المختلف كالمؤتلف والمتباين كالمتناسب ، وهذا أمر عجيب تتبين به الفصاحة وتظهر به البلاغة ويخرج به الكلام عن حد العادة ويتجاوز العرف ،

(1) مجلة فصول ، ص 41.

(1) ابن أبي الأصبغ : بدائع القرآن ، تحقيق حفني شرف ، مطبعة الرسالة ، القاهرة ، 1957 م ، ص 78.

والتناسب الداخلي في القرآن لا يقف عند حد موافقة اللفظة للأخرى التي تليها ، بل يتعدى ذلك إلى موافقة الجملة للجملة وموافقة الآية للآية والسورة للسورة في ذلك الترتيب التوقيفي الفريد - وإن كان القرآن قد نزل منجماً ولم ينزل سورة واحدة أو جملة واحدة _ ألا ترى أنهم عابوا أن تقرأ السورة ثم يتلى بعدها ما يسبقها وسموا ذلك تنكيساً .

كما ترى أن القرآن - من خلال كونه وحدة متكاملة وكلا يتجزأ - يخصص خاصه عامه ويقيد مقيده مطلقه ويفسر مفصله مجمله ، وهذا دليل على الوحدة والتماسك والارتباط ، وهو بعظيم نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على اختلاف ما يتصرف فيه من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وإنذار ووعد ووعيد وتخويف ، الأمر الذي تجده بخلاف ذلك عند كلام البليغ الكامل والشاعر المفلق والخطيب المصقع ؛ حيث تجد اختلافاً بحسب اختلاف هذه الأمور ، وهذا أمر يجعل الكلام الإلهي قمة شماء لا تترك وغاية سامية لا تنال ويكسبه خصوصية وتميزاً ظاهرين .

ولذلك فإنّ القرآن العظيم نص متماسك الأجزاء متلائم الألفاظ أخذ بعضه بحجز بعض وإذا أردت أدلة أخرى من ذلك يطمئن إليها قلبك فانظر إلى قوله تعالى - وقد جاء ذكره فيما سبق: - [لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم] "آل عمران ، آية: 188" . فقد فهمها ابن مروان على عمومها ؛ فأرسل إلى ابن عباس ؛ فقال ابن عباس : مالكم ولهذه الآية إنما نزلت في أهل الكتاب ثم تلا الآية التي قبلها [وإذ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب] "آل عمران آية: 187 "

قال ابن عباس: سألهم رسول الله (ﷺ) عن شيء فكتموه إياه وأخذوا بغيره؛ فخرجوا وقد أروه أن قد أخذوه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه وفرحوا بما أتوا من كتمان ما سألهم عنه⁽¹⁾ . وانظر كذلك إلى قوله تعالى : [الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل] " آل عمران آية: 173" .

ونسبة للترابط بين أجزاء الآية فقد تغيرت نوعاً ما دلالة بعض الألفاظ تأثراً بالأخرى ولذلك ذكر العلماء أنّ المقصود بلفظ (الناس) الأولى : نعيم بن مسعود والمراد بلفظ (الناس) الثانية : أبو سفيان بن حرب⁽¹⁾ ويدل على ذلك الآية بعد التي تليها :

[ذلّم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم ...] " آل عمران آية: 175 "

ولو كانوا جمعاً لقال (أولئكم الشياطين).

ولأجل التناسب بين أجزاء الآية فقد تلمس العلماء المناسبة بين الأهله وإتيان البيوت من ظهورها في قوله تعالى: [

يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها] " البقرة آية : 189 "

(1) أخرجه البخاري ومسلم .

(1) مباحث في علوم القرآن ، ص 530.

وذكروا لذلك ثلاثة أوجه هي (2) :

الوجه الأول : كأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الحكمة في تمام الأهله ونقصانها : معلوم أن كل ما يفعله الله فيه حكمة ظاهرة ومصالحة لعباده فانظروا في واحدة تفعلونها مما ليس من البر في شيء وانتم تحسبونه برّاً.

الوجه الثاني: لما ذكر مواقيت الحج - وكان من أحوالهم في الحج إتيان البيوت من ظهورها- فقد كان من حقهم السؤال عن هذا وترك الأهله.

الوجه الثالث: أنه من قبيل التمثيل لما هم فيه من تعكيس الأسئلة ، وأن مثلهم كمثّل من يترك باباً ويدخل من ظهر البيت ؛ فقيل لهم: ليس البر ما أنتم عليه من تعكيس الأسئلة ؛ ولكن البر من اتقى ؛ فالله لا يسأل عما يفعل .

ولاشك أن التناسب الداخلي-كما سبق- من أهم السمات الإعجازية في القرآن العظيم ؛ ولذلك قال الإمام الزركشي:

" إنَّ المناسبة علم شريف تحزر به العقول وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها أخذاً بأعناق بعض فيقوى بذلك

الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء"(1) .

وقال الإمام فخر الدين الرازي : " أكثر لطائف التفسير مودعة في الترتيبات والروابط"(2)

وكان الإمام أبو بكر النيسابوري يقول إذا قرئت عليه آية : لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه الآية ولم جعلت هذه

السورة إلى جنب هذه السورة، وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة(3) .

وهذا العلم على أهميته الكبرى ومكانته السامية وشرفه البين لم يوله علماء التفسير والدراسات القرآنية ما يستحق

من العناية؛ وإنما عني بذلك بعض البلاغيين والباحثين في إعجاز القرآن ولذلك يقول الزركشي: " وقد قل اعتناء

المفسرين بهذا النوع لدقته؛ وممن أكثر منه الإمام فخر الدين الرازي"(4) ويقول القاضي أبو بكر بن العربي :

" ارتباط أي القرآن ببعضها حتى تكون كالكلمة الواحدة مشتقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم لم يتعرض له

إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة ثم فتح الله عز وجل لنا فيه فلما لم نجد له حملة ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا

عليه وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه"(5).

علاقة مفردات الكلام باللغة :

سبق أن التفاوت بين المتكلمين داخل اللغة الواحدة يكون في استخدام المفردات ونظمها ونسجها حتى تعبر عن

المقاصد التي يرمي إليها المتكلم ؛ ولا شك أنّ المتكلم يحاول المطابقة بين مقاصده وكلامه ؛ وهذه المطابقة تختلف باختلاف

المقاصد ؛ ولأجل ذلك تختلف التعابير تبعاً لذلك ، وإذا كانت الأفكار والمقاصد بصمة مميزة لصاحبها وعلامة دالة عليه

(2) البرهان في علوم القرآن : الزركشي ص 41.

(1) البرهان 35/1

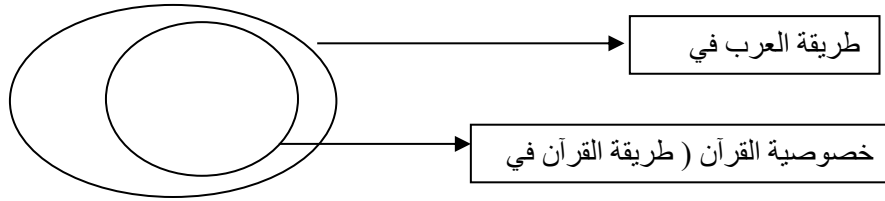
(2) المصدر نفسه 36 / 1

(3) المصدر نفسه 36 / 1

(4) المصدر نفسه

(5) المصدر نفسه

فكذلك الكلام ولذا قيل (الأسلوب الرجل) كأنما كان الأسلوب لفرط تميزه هو كاتبه ؛ هذه الخصوصية لا يكاد يماري فيها أحد أو يجادل ؛ إذ أنّ لكل متكلم بليغ سماته وخصائصه التي لا يضاهيه فيها أحد ؛ وإذا كانت الأعمال الإبداعية البشرية بهذا التميّز وكانت ذات فواصل واضحة كما ذكرنا فإنّ الكلام الإلهي أكثر تميّزاً وخصوصية وأشدّ وضوحاً في ذلك ، وإذا كان علماءنا الأقدمون يؤكدون بشدة ويصرّون إصراراً لا تخطئه العين في كتاباتهم على أن القرآن جار على طريقة العرب في التعبير - فإنه لا ينبغي فهم كلامنا السابق إلا في هذا الإطار ؛ فامرؤ القيس والنابغة وعترة وزهير تجري أشعارهم على طريقة العرب في التعبير ولكن خصوصيتهم وتميزهم بنظومهم الدالة على مقاصدهم داخل هذا الإطار الذي ذكرنا هو إبداعهم الذي جعلهم أعلاماً يشار إليهم بالبنان . وإذا كان الأمر كذلك فإنّ القرآن أوضح خصوصية وأشدّ تميّزاً ولذلك كان معجزاً وكان بينه وبين كلام بقية المبدعين العرب بوناً شاسعاً ولكنه لا يخرج عن ذلك الإطار الذي ذكره العلماء ؛ ولذلك فلا غرابة أن يقال أن لغة الفنية مصطلحها وخصائصها التي لا تنفقت عن اللغة العامة التي ينتمي إليها العمل .



ولذلك فلا شك أنّ البنية النظامية التي تشكّلها المفردات لا يمكن تصورها بعيداً عن مفهومين مهمين هما: المعنى العادي والدلالة الخاصة ؛ فالأول يرتبط أساساً بالمواضع الأصلية للغة ؛ أي بتلك المعاني التي يمكن العثور عليها داخل المعجم ، أما الثاني فهو ما ينتج من التركيب بعد اكتسابه طبيعة النظم ؛ أي بعد أن يؤدي النحو دوره في خلقه وتشكيله ويتم التطابق بين الكلام ومقاصده .

والفروق التي من شأنها أن تكون بين تلك النظم التي يمكن تشكيلها من المفردات المختلفة كثيرة جداً ليس لها غاية تقف عندها ، ونسبة لهذه الوجوه الكثيرة المتاحة في النظم تجد أن المعبرين عن المعنى الواحد يكون أحدهما أفصح من الآخر والفكرة متفوقة ، وقد يكون أحد المعنيين أو الفكرتين أحسن ولكن المعبر عنه أقل جمالاً ؛ فالأوجه التي تتيحها المفردات للمبدع في تشكيلاتها المختلفة كثيرة جداً ، دقيقة المسالك - سواء كان ذلك في التزامها بالمألوف أو في عدولها عنه إلى تشكيلات خاصة - وكلا الأمرين لابد فيهما من مطابقة الفكرة للتعبير ، وتناسب المفردات لبعضها داخل النظم.

ورغم التفصيلات الدقيقة في بنية العبارة ، والكشف عن معانيها والعناية الفائقة بمظاهر المعنى الحساسة في التركيب اللغوي البلاغي ، والشعور القوي بما في هذه اللغة من ثراء وتعقيد - عند البلاغيين العرب - إلا أنّ فاعلية هذه اللغة في إطار التعابير المختلفة كالتفق عليها من حيث الإمكانيات المتاحة ، وأقصى ما يقال في نشاط السياق - مثلاً - إنه يمنح الألفاظ مكانة ذاتية ويحدث اختلافات - غير جوهرية - في أمكنة الكلمات وصياغاتها، أي أنّ السياق ليس له قوة فاعلة تعطي للأجزاء دلالات أو فاعليات خاصة⁽¹⁾.

(1) د تامر سلوم : نظرية اللغة والجمال في النقد العربي ، ط/1 دار الحوار ، 1983م، ص 5 .

والحق أنه بعد تشكيل المفردات تشكيلاً فنياً يبدو أمام البحث البلاغي طريقان للتحليل : أحدهما : يهدف إلى إدراك علاقة الكلمة بغيرها من الكلمات التي تجاورها أو تبتعد عنها وأثر ذلك في تغيير الدلالة . والآخر : يرمي إلي معرفة علاقة الكلمة المذكورة في النص بالبدائل التي يمكن أن تحل محلها ولكنها لم تذكر لهدف جمالي أو دلالي أو توخياً للدقة ، وربما مال المبدع إلى الغريب وترك المألوف لذات الهدف وربما ترك المتوقع وأخذ غير المتوقع ؛ وهو ما يسميه البلاغيون القدماء بـ(العدول) ويسميه المحدثون بـ(الانزياح) أو (الانكسار).

ولقد كانت هذه الظاهرة الفنية من أكثر الظواهر التي ركّز عليها الأسلوبيون اهتمامهم ؛ فالتعبير - عندهم - أسلوب فردي ذو دلالة جمالية خاصة ، ويهدفون بذلك إلى دراسة القيم التعبيرية الكامنة أو المثارة في الكلام ، ولا يقفون بدراستهم هذه عند الصور والأنماط التقليدية المتعارف عليها ولكنها تمتد إلى اللغة في حقولها التعبيرية اللامتناهية. والمتأمل في القرآن بخاصة يجد هذه الحقول التعبيرية اللامتناهية قد حملت معانٍ وتراكيب ذات خصوصية إلهية عجيبة ، وهذه التراكيب الانزياحية القرآنية التي تشكّلها مفرداته لا يكاد النحو المعياري العام يمسه إلا مساً رقيقاً غير متطرق لجمالياتها وأشكالها الدقيقة الخاصة. وإذا أردت نماذج بديعة ومواضع لطيفة للعدول ؛ فانظر إلى قوله تعالى : [**خَتَامَهُ مَسْكَ**] " المطففين آية : 26 . " ألا ترى كيف مال عن وصف أول الخمر (المتوقع) إلى الوصف الآخر (غير المتوقع) وهو الختام ؛ وذلك لأن أول الخمر المعتادة يكون زكي الرائحة ، أما آخرها فيكون كريهاً ، ولما كان آخر هذه الخمر كالمسك في طيب الرائحة ؛ فما بالك بأولها (غير المذكور)؟ ؛ ومثله قوله تعالى عن (بسط الجنة) : [**بِطَانِهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ**] " الرحمن آية : 54 . " والبطائن هي الجوانب الخشنة من البسط ، ألا ترى أنه مال عن وصف الظواهر الناعمة (المتوقعة) إلى وصف البطائن الخشنة (غير المتوقعة) ؛ واصفاً إياها بأنها من إستبرق شديد النعومة لين الملمس ، فما بالك إذاً بالظواهر (غير المذكورة)؟! .

وهذه الجوانب الثلاثة ؛ وهي : التناسب الخارجي والتناسب الداخلي وعلاقة الكلام باللغة - كما سبق - لا بد من مراعاتها في العناصر الصوتية والمعجمية والصرفية والنحوية ، وإلا كان الحكم مفروضاً على العمل من خارجه ، وجرّ إلى عواقب وخيمة - كما سيأتي.

أ - العنصر الصوتي :

سبق أنّ المقاصد والأغراض هي الأصل المعول عليه في تقويم الكلام بلاغياً وفي إدراك دلالته إدراكاً دقيقاً ، ويشارك هذا الأصل أصل آخر هو تناسب المفردات وانسجامها حتى تدل على ذلك الأصل الأول ؛ ولذلك فإنّ إغفال أحد هذين الجانبين يفتح باباً من الخطأ المنهجي الذي يستحيل تقدير عواقبه كما سيأتي وهذه الفكرة المنهجية من شأنها أن تحسم قضايا شائكة في البلاغة العربية التي هي من أهم الأدوات التفسيرية كما سيأتي .

ورغم أنّ عملية فصل المفردات عن سياقها ودراستها بمعزل عن تركيبها لا يؤدي إلى نتائج صحيحة دقيقة ، إلا أن طائفة كبيرة من البلاغيين العرب (اللفظيين) قد اهتموا اهتماماً كبيراً باللفظ المفرد واشتروا له شروطاً ووضعوا له أحكاماً فردية ، إلا أنّ تلك الأحكام لم تكن تدور مع العلل في كافة المواضع فنياً وإثباتاً ، مما يقدر في صحتها ؛ فالألفاظ المفردة - عندهم - حال استقلالها عن التركيب - أي في اللغة - منها الجميل الحسن الذي ينبغي للكاتب أو الشاعر أن يتوخاه ومنها

القبح البشع الذي ينبغي له أن يحذره ويتحاشاه ؛ ولذلك يقولون: "إن قبح الألفاظ أو حسنها في ذاتها مطلق عند العرب وغيرهم".

ولذلك تراهم - مثلاً - قد حكموا على كلمة (المزن) الدالة على السحاب بالحسن والجمال والروعة ؛ وحكموا على كلمة (البعاق) وهي دالة على السحاب أيضاً بالقبح والبشاعة، وليس ذلك الأمر بالصحيح؛ إذ أن كلمة المزن التي حكموا عليها بالجمال ربما جاءت في موضع غير لائق فأفسدت النظم واختل لاختلالها الكلام ولصق بالحضيض وربما بلغت كلمة البعاق في أحد النظم مكاناً لا يمكن أن تبلغه كلمة غيرها ، فالمفردات اللغوية - كما ذكرنا في التناسب الداخلي- ألفاظ محايدة لا جمال لها ولا معنى إلا من حيث تركيبها ونظمها ، وأقرب دليل على ذلك أنّ مفردات القرآن مفردات متاحة في لغة الجاهليين يعرفونها ويستخدمونها فلا أخال أنّ الذي أعجزهم عن الإتيان بمثل القرآن هو عجزهم عن جمع المفردات؛ وإنما عدم مقدرتهم على نظمها وسبكها واختيارها بدقة داخل التركيب ليأتوا بمثله ؛ ولذلك فإنهم لو استخدموا مفردات القرآن جميعها ونظموها لما أتوا بشيء يضاهي هذا القرآن تأكيداً..

وإنك لتتظر في كتب أولئك اللغويين فتراهم قد عابوا مثلاً كلمة (العهج) (1) ؛ لتقارب مخارج الحروف فيها ، وعابوا كلمة (الجرشي) ؛ لكرهتها في السمع (2) ؛ وعللوا تلك الكراهة بتوالي الكسرات ؛ وذلك كما في قول المتنبي :

مبارك الاسم أغر اللقب كريم الجرشى شريف النسب

إلا أنّ قرب مخارج الحروف ليس علة دائمة مع الحكم بالقبح ، فكلمة (العهج) قبيحة بلا شك؛ ولكنها وردت في كتب البلاغة بألفاظ مختلفة ولم يتفق على لفظها (3) ، وأغلب الظن هو ما ذهب إليه بعضهم من أنها كلمة معاينة لا أصل لها (4) .

ولو كان القرب في مخارج الحروف علة للحكم بقبح اللفظ على الإطلاق ، لقبح لفظ (أعهد) (5) في قوله تعالى : [ألم أعهد إليكم يا بني آدم] " يس الآية: 60 " ولو كان توالي الحركات علة للقبح-أيضاً لقبح قوله تعالى : [إني رأيت أحد عشر كوكباً] "يوسف آية : 4 " .

ورغم أنّ هذه القواعد تحتاج إلى كثير نظر إلا أن بعضهم قد تعصب لها، فكان ثمرة ذلك التعصب لتلك القواعد الجزئية الضيقة أن ادعي الزوزني: " أن اللفظ غير الفصيح قد يقع في القرآن " (6). مما جعل بهاء الدين السبكي يعتذر عن قوله واصفاً إياه بأنه زلة قدم (1) ، فبدلاً من أن يبحث الزوزني عن علل جزئية أخرى لما أحسه من قبح في تلك الألفاظ

(1) قالوا هو نوع من الشجر مر المذاق كربه الرائحة .

(2) شروح التلخيص 78/1 ط/ دار السرور (بدون تاريخ).

(3) تروى (العهج) و(الجعج) و(الععج).

(4) انظر عروس الأفراح 78/1 بهامش شروح التلخيص ط/ دار السرور .

(5) الألف والعين والهاء في أعهد حروف حلقية .

(6) عروس الأفراح 1 / 91.

(1) المصدر نفسه .

التي استخرجت منها قواعدهم إلا أنه جمد تلك القواعد وحكم على ما خرج عنها بالجمال وإن كان قبيحاً ، وحكم بالقبح على ما صدقت فيه العلة-المشترطة في قواعدهم - وإن كان جميلاً ، ثم تراه بذلك قد اجترأ على ألفاظ القرآن العظيم .
ولم يسلم مذهب أولئك للفظيين وأحكامهم الجزئية من الطعن في صحة دعواها من البلاغيين والنقاد العرب القدامى ومن غيرهم، وقد عاب أرسطو ذلك -من قبل- على من ذهب هذا المذهب عند اليونان⁽²⁾. كما ألف عبد القاهر كتابه (دلائل الإعجاز) لدحض حججهم ، كما هاجم النقاد المحدثون كل من ذهب هذا المذهب موضحين أن حججهم موهومة تقضي بتفرد بعض الكلمات بخواص شعرية تمتاز بها عن غيرها، مما يعد قصوراً شديداً في إدراك خصائص الشعر والفن والأدب اللغوية ، فالذي يحدّد ذلك إنما هو التركيب السياقي ، وليست هناك كلمة شعرية جميلة وأخرى غير شعرية أو مفردة أدبية وأخرى غير أدبية ، وإنما هناك (تشعير)-إن صح اللفظ- للكلمات⁽³⁾ من حيث مطابقة تلك الكلمة للفكرة العامة ، ومناسبتها لأحوالها وليس هناك من قبح ذاتي للمفردات، فلو قال المتنبّي - مثلاً :-

لنيم الجرشي قبيح النسب

لما نفرت الأذن عن هذا اللفظ وذلك للتناسب الذي حدث بعد إذ لم يكن . ومن هنا يمكن دراسة هذا العنصر .
فلألفاظ ظلال وأرواح تخلعها على النص الفني فتضفي عليه الشحنات الشعرية الرائعة ، فإذا جردت هذه المعاني من أجراس الألفاظ فقدت ذلك وبقيت الأفكار المجردة جافة باردة ، يقول سيد قطب :
" إنني لأنظر في القرآن -أعلى قمة في التعبير الأدبي في اللغة العربية- بغض النظر عن القداسة الدينية حين تنقل بعض آياته الفنية إلى لغة أخرى، وحين تتخلف عن الترجمة صورته وظلاله وإيقاعاته ، إنه يفقد جماله الفني وإن بقيت قيمته المعنوية ، ويستحيل عندئذٍ تقدير قيمته من هذه الوجهة ، أما نقل صورته وظلاله وإيقاعه ، فهو عمل أراه اعسر من العسر ، لدقة هذه الخصائص وتسامي أفاقها"⁽¹⁾.

ومن هنا يبدو أن العنصر الصوتي من أكثر العناصر أهمية في تكوين المفردات ، إلا أن أولئك اللفظيين قد درسوا هذا العنصر وشغفوا به بطريقة جزئية قاصرة على المفرد ، ولم تمتد نظرتهم إلى العمل الكلي، ولم يهتموا بدلالاته وأثاره الدقيقة في نفس السامع، ولذلك كانت دراسة اللغويين - كابن جني والثعالبي - أكثر نضجاً من حيث تحسس الدلالات في هذا العنصر وإن كانت بحوثهم غير جمالية .

ولأصوات الألفاظ المفردة وأجراسها - دون استصحاب معانيها - دلالات معينة توحى بذلك المعنى الذي تدل عليه ، وقد سئل أحد العلماء الذين حذقوا اللغة وعرفوا علومها فصار لديهم إحساس دقيق بمعانيها فقيل له: ما معنى إذغاغ قال : لا اعرف، ولكني أجد في اللفظة ببساً ولا أظنها إلا الحجر ، فقيل له: هو الحجر بالفارسية . ولأجل ذلك ذهب بعض العلماء

(2) محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي ، ط1 ، نهضة دار مصر (بدون تاريخ) ص 250.

(3) د صلاح فضل : البنائية في النقد الأدبي ، ص 375

(1) سيد قطب : النقد الأدبي ، ص 51

إلى أن اللغة محاكاة للطبيعة وتقليد لها؛ ثم فقدت كثير من المفردات عناصر المحاكاة فصارت ذات دلالات رمزية وبقي الآخر على حاله؛ ويقول ابن سينا:

" إن كل حرف من الحروف الهجائية يحكى صوتاً من أصوات الطبيعة فالعين تشبه ذلك الصوت الذي ينبعث من إخراج هواء بعنف من مكان رطب والقاف تسمع مثالها من فلق الأجسام وشقتها ، والسين من نفوذ الرطوبات بقوة من خلال الأجسام اليابسة والراء من تدرج كرة على لوح".

ولا يعيننا بالطبع في هذا المضممار الصوتي اللفظ المفرد بعد أن بسطنا القول فيه، إنما يعيننا إيقاع المفردات وجرسها حين تكون متناغمة في النظم مع بعضها ولهذا الأمر في القرآن - وإن كان ذلك دون استصحاب المعنى - من البهجة وغرابة الشأن ، ما يحير الألباب ، فلقد "استعملت أجهزة الكترونية مزودة بالكمبيوتر لمراقبة وقياس أي تغيرات فسيولوجية عند عدد من المتطوعين الأصحاء - متحدثين بالعربية وغير متحدثين بها - أثناء استماعهم لتلاوة قرآنية فأثبتت التجارب المبدئية وجود أثر مهدئ للقرآن في 97% من التجارب في شكل تغيرات فسيولوجية تدل على تخفيف توتر الجهاز العصبي التلقائي ويمكن أن يعزى ذلك إلى صوت الألفاظ القرآنية بغض النظر عما إذا كان المستمع قد فهمها أو لم يفهمها وبغض النظر عن إيمان المستمع"⁽¹⁾

وهذا دليل قاطع على أن المفردات اللغوية المنعزلة عن السياق والمنسلخة عن النظم لا يحكم عليها بالجمال والإعجاز؛ وإنما الجمال والإعجاز في ملاقات المفردات كأنما أفرغت فراغاً واحداً؛ فالألفاظ القرآنية المفردة خارج السياق الإلهي محايدة متاحة لكل من أراد استخدامها؛ فهي لذلك معجزة في نظمها وسياقها وليس خارجه ولذلك يقول الجرجاني: " وهل يقع في وهم وإن جهد أن تتفاضل الكلمتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من النظم والتأليف ... وهل تجد أحداً يقول هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وفضل مؤانسيتها لأخواتها؟ وهل قالوا لفظة متمكنة ومقبولة وفي خلفه نابية ومستكرهة إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك وبالقلق والنبؤ عن سوء التلاوم"⁽²⁾.

ومن هذا المنطلق يمكن أن ينظر إلى قول الزوزني بادعائه أن اللفظ غير الفصيح قد يقع في القرآن وينظر إلى هذه الألفاظ من حيث تناسبها مع الأغراض والأفكار العامة ومن حيث انسجامها مع أخواتها ، وضرورة عدولها عن السهولة والخفة المألوفة إلى الثقل والصعوبة ، وعندئذ - فقط - يتبدى الحسن ويتكشف الجمال القرآني فيها ، ولعل الزوزني يقصد أمثال (أنلزمكموها) و (اثاقتم) و (بيطئن).

وإذا أردت دليلاً على جمال هذه الألفاظ فانظر إلى لفظ (أنلزمكموها) داخل النسيج القرآني - في قصة هود عليه السلام وهو يخاطب قومه:-

[قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون

[" هود آية : 28 "

(1) مجلة منار الإسلام : مقال بعنوان : الألفاظ القرآنية في علاج التوتر العصبي / أبريل 1986م.

(2) دلائل الإعجاز 39.

ألا تحس أن اللفظ نفسه يصور جو الإكراه ، بإدماج هذه الضمائر وشد بعضها إلي بعض كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون وهم عنه نافرون⁽¹⁾ ولعلك أيضاً تلمح الأثر الجمالي الذي تخلقه كلمة (اثاقلتم) داخل النص في قوله تعالى :

[يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض] " التوبة آية : 38 "

ألا تجد أن هذه اللفظة قد رسمت صورة شاخصة يتصور فيها الخيال ذلك الجسم المتثاقل يرفعه الرافعون في جهد ، فيسقط من أيديهم في ثقل ، ولو أنك خففت الجرس وقلت: (ثناقلتم) مثلاً أو عدلت إلى لفظ آخر أكثر خفة لضاع الأثر المذشود وتوارت الصورة المطلوبة⁽²⁾. وتقرأ أيضاً لفظ (لبيطنن) في قوله تعالى : [وان منكم لمن ليبطنن] " النساء آية 72 " فترسم في ذهنك صورة التبطنة بجرسها؛ وان اللسان ليكاد يتعثر وهو يتخبط فيها ببطء حتى يصل إلى نهايتها⁽³⁾.

فمناط الجمال إذاً ليس في حلاوة الألفاظ وطلاوتها ومدى ما تحدثه في النفس من بهجة وسرور، وليس هو ما تستطيه النفس ، بل قد يثير هذا الجمال - في بعض الأحيان - الاشمئزاز والانقباض والنفور من الصورة التي يريد أن يرسمها ، ويكون كامناً في مطابقة هذا الغرض الذي قام من أجله فصوّره في أكمل هيئاته وأشكاله والجأ بالمعنى في أتم وجهه وقوته إلي ذهن السامع .

وإذا أردت في ذلك دليلاً بيّناً فلك أن تتخيل المفارقة في مسابقة قد أعدت لتصوير شيطان فأعطيت الجائزة لمن صوره حسن الوجه جميل الطلعة متورد الخدود مليح العينين رغم ما بين الغرض والتعبير من مفارقة.

ويترتب على ذلك أن لا يكون الإبداع والبراعة باختيار الألفاظ الوحشية والعدول عن السهولة الخفيفة ولا العكس ؛ فلكل غرض ما يناسبه من الألفاظ ، بل إن البراعة في تشكيل تلك الألفاظ وتناسبها وانسجامها ألا ترى أن الله تعالى عدل عن لفظ (الدفع) السهل الخفيف إلى لفظ (الدع) الثقيل لمناسبته للألفاظ الأخرى المكونة للسياق ومطابقته للغرض وهو تصوير الحالة وتوليد معنى الألم والتوجع بالدلالة الصوتية في قوله تعالى:

[يوم يدعون إلى نار جهنم دعا] " الطور آية : 13 "

ألا ترى أنّ لفظ (الدع) يصور دلالاته - وهي : الدفع في الظهور بعنف - بجرسه، ثم ألا ترى أن المدفوع _ عادة - يخرج صوتاً غير إرادي : عين مشددة ساكنة (أع) هكذا ؛ وذلك من المفاجأة وفرط الألم ، وهو أقرب ما يكون إلى صوت الدع في جرسه⁽¹⁾ . وتأمل أيضاً قوله تعالى - عن سد يأجوج ومأجوج :-

[فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً] " الكهف آية: 97 "

فـ (استطاعوا) و (استطاعوا) يعبران عن معنى واحد ؛ ولكن الأولى قد أدغمت التاء فيها مع الطاء ، وفي الثانية جاءتا مظهرتين ، فما السر الصوتي من حيث دلالاته على المعنى؟ يدرك هذا السر عند النظر إلى تناسب المفردتين مع المفردات الأخرى داخل النسيج القرآني؛ فمعنى (يظهروه) : يعلوه ؛ أي أنهم لم تكن لهم حيلة فيه من صعود لارتفاعه

(1) المصدر السابق

(2) المصدر السابق

(3) المصدر السابق

(4) المصدر السابق .

وانملاسه ، ومعنى (نقبا) : خرّقا؛ أي لم يستطيعوا خرّقه لصلابته وثخائنه⁽¹⁾ ، تأمل كيف عبر لفظ (استطاعوا) في مقام الصعود حال انملاسه السد ؛ وكأن هذا الإدغام في جرس (اسط) قد شكل صوت انزلاق القدم في السطح الأملس . وكيف عبر بـ (استطاعوا) في مقام الخرق والحفر ، وكأن صوت التاء والطاء مظهرتين (تطا) صوت الحفر في معدن السد الذي صار ذا نتوءات من أثر الحفر .

وقد تتكامل المفردات في سياق التعبير القرآني فتحدث صوتاً ذا دلالة خاصة تناسب المعنى العام، وفي هذه الحالة لا تستقل المفردة بجرسها عن بقية المفردات ؛ فإذا قرأت سورة الناس متواليّة وجدت الألفاظ تصور وسوسة (الوسواس الخناس) تصويراً كاملاً . ومثله سورة العاديات ؛ فإنك تجد في موسيقاها خشونة ودمدمة وفرقة تناسب الجو الصاخب المعفر ، حتى تكاد تسمع فيه وقع السنابك وبعثرة القبور⁽²⁾ . والأمر كذلك في بعض الأعمال الفنية الأخرى إذا بلغت في بعض جوانبها شأواً بعيداً من الإبداع؛ انظر إلى قول لبيد:

حتى إذا قلت رحلتها وأسبل نحرها وابتل من زبد الحميم حزامها

الأ ترى الحاءات المتتالية التي تكاد تسمع منها أنفاس الفرس وحممته⁽³⁾ ؛ وتأمل قوله تعالى : [واشتعل الرأس شيباً] "مريم آية: 4 "

الأ ترى أن هذا الاشتعال السريع للشيب يصوره صوت همزة الوصل بانضمامها إلى الشين التي في (اشتعل) مضافة إلى السين والشين والياء في (الرأس شيباً) ، وقد حاكى كل ذلك صوت النار في اشتعالها . ولعل ابن الفارض قد أحس بمثل ذلك وأراد اقتفاء أثره فأخفق في قوله :

سهم سهم القوم أشوى وشوى سهم الحاذك أحشاي شي
أي شيء مبرد حرا شوى للشوى حشو أحشائي أي شي

لقد خانه التعبير ، فاصطدمت نفس القصيدة بأبيات تخدش السمع بموسيقاها المتنافرة و (كأنها شوك يتقصف بين مشفري بعير)⁽¹⁾ وذلك لعدم تناسب المفردات التي أراد بتشكيلها محاكاة صوت شي نار الحب والشوق لحشاه؛ ورغم أن كل مفردة من مفردات بيته سلسلة جميلة إلا أنها قبحت لعدم تناسبها مع بقية المفردات ؛ ولذلك تجد أن اللفظيين قد اشترطوا فصاحة الكلام – بغض النظر عن فصاحة الكلمة المفردة فيه – وهو أمر يعتبر أكثر شمولية من آرائهم السابقة ؛ ولذلك تجدهم قد عابوا قول لشاعر:

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

الذي زعمت العرب - لبشاعته - أن قائله جنى صاح به على حرب بن أمية في فلاة فمات⁽²⁾.

(1) الكشف 2/ 261

(2) النقد الأدبي :سيد قطب 52-53

(3) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها 1/ 261

(1) ميشال فريد غريب ، عمرو ابن الفارض من خلال شعره ، ص72.

(2) شروح التلخيص 97/1 .

ولعل اللفظيين قد رأوا أن شروط فصاحة التي اشترطوها للفظة المفردة لا تجدي في تقويم الكلام ، فجعلوا له قاعدة (فصاحة الكلام).

ب- العنصر الصرفي:

تتعرض مفردات العمل الفني لتغيرات صرفية متعددة واشتقاقات متنوعة ؛ كالأفراد والتثنية والجمع وصيغ التفضيل والتعجب واسم المرة والهيئة وغيرها من الصياغات المتنوعة . ولابد من مراعاة جوانب التناسب الثلاثة – أنفة الذكر- في هذا العنصر- أيضاً – كما روعيت في العناصر السابقة ؛ فمن حيث تناسب هذا العنصر مع الفكرة العامة - في القرآن العظيم - أن لفظ (ولي) (وسيل) تفرد في إضافتها للحق وتجمع في إضافتها للباطل ، ومن هذا القبيل أيضاً أفراد (النور) وجمع (الظلمات) ؛ وذلك كما في قوله تعالى: [ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله] "الأنعام الآية: 153 " وذلك لأنّ طريق الحق واحدة وطرق الباطل منتشعبة متعددة ، والظلمات بمنزلة طرق الباطل بل هي هي ؛ ولهذا وحّد (ولي المؤمنين) وجمع (أولياء الكفار) لتعدهم في قوله :

[الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات] " البقرة الآية : 257 "

ومن ذلك - أيضاً- أن الريح تجمع في سياق الرحمة ، وتفرد في سياق العذاب ؛ قال أبي بن كعب :

" كل شيء في القرآن من الرياح فهو رحمة . وكل شيء فيه الريح فهو عذاب" (1)

وذلك لأنّ رياح الرحمة -كما قال السيوطي- مختلفة الصفات والهبات والمنافع ؛ وإذا هاجت منها ريح أثير لها من مقابلها ما يكسر ثورتها ؛ فينشأ من بينهما ريح لطيفة تنفع الحيوان والنبات ، وأما في العذاب فأنها تأتي من وجه واحد ولا معارض لها ولا دافع(2). ورغم ذلك إلا أنّ الله تعالى قد عدل عن هذه القاعدة في سورة يونس في قوله :

[وجرين بهم بريح طيبة] " يونس الآية : 22 "

فما سبب هذا العدول في هذا الموضع؟ والجواب : أنّ لذلك وجهين:

الأول لفظي وهو : المقابلة بقوله : (جاءتها ريح عاصف)، ورب شيء يجوز في المقابلة ولا يجوز استقلالاً نحو [

ومكروا ومكر الله] " آل عمران الآية : 54 "

والثاني معنوي وهو : أن تمام الرحمة هناك إنما تحصل بوحدة الريح لا باختلافها ؛ فإن السفينة لا تسير إلا بريح من وجه واحد ، فإذا اختلفت عليها الرياح كان ذلك سبب الهلاك، والمطلوب هنا ريح واحدة ؛ ولهذا أكد المعنى بوصفها بالطيب ؛ وعلى ذلك أيضاً جرى قوله :

[إن يشأ يسكن الريح فيظلن رواكد على ظهره] " الشورى الآية : 33 " .

(1) معترك الأقران 3 / 597

(2) نفس المصدر السابق

ولا شك أن هذا - بذلك التخريج- جار على القاعدة؛ لأن سكون الريح أو تعدد اتجاهاتها عذاب وشدة على أصحاب السفن قديماً⁽¹⁾.

ج- العنصر النحوي

ليس المقصود بهذا العنصر ذلك الجانب التركيبي الذي يتحكم في موقع اللفظ من الجملة، والذي سبق سرده في (التناسب الداخلي) ، وإنما المقصود ذلك التغير الموضوعي الذي يكون في المفردة من حيث التأنيث والتذكير والاسمية والفعلية، والتذكير والتعريف

أما مناسبة المفردات للفكرة وانسجام المفردات في إطار الاسمية والفعلية للمفردة فقد جاءت المفردات القرآنية منسجمة انسجاماً داخلياً محكماً ومناسبة للأفكار والأغراض العامة؛ فالاسم يدل على الثبوت والاستمرار والفعل يدل على التجدد والحدوث ؛ ولا يحسن وضع أحدهما موضع الآخر؛ ومن ذلك قوله تعالى :

[وكلبهم ببسط ذراعيه بالوصيد] " الكهف الآية : 18 "

ولو قيل (يبسط) لم يؤد الغرض ؛ لأنه يؤذن بمزاولة الكلب للبسط وأنه يتجدد له هذا البسط شيئاً بعد شيء ؛ فلفظ (بسط) مشعر بثبوت الصفة⁽²⁾؛ ومثله قوله تعالى :

[هل من خالق غير الله يرزقكم] " فاطر الآية : 3 "

ولو قيل (رازقكم) لفات ما أفاده الفعل من تجدد الرزق شيئاً بعد شيء ، ولهذا جاء الفعل في صورة المضارع . ومثله أيضاً قوله تعالى:

[أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن] " الملك الآية : 19 "

فإنه قال : (يقبضن) ولم يقل (قابضات) ؛ وذلك لأن الأصل في الطيران البسط للأجنحة ؛ لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء ، والأصل في السباحة مد الأطراف وبسطها ، وأما القبض فطارئ على البسط للاستعانة به على التحرك ، فجيء بما هو طارئ غير أصل بلفظ الفعل (يقبضن) ؛ إذ يكون القبض منهن تارة بعد تارة كما يكون من السابح⁽¹⁾ . ونحوه - كذلك- قوله تعالى: [إننا سخرننا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق] " ص الآية: 18 . فـ (يسبحن) في معنى مسبحات على الحال، وفائدة التعبير بـ(يسبحن) هي: الدلالة على حدوث التسبيح من الجبال شيئاً بعد شيء ، وكأن السامع حاضر تلك الحال .

ومثله قول الأعشى: إلى ضوء نار باليفاع تحرق ولو قال : (محرقة) لم يكن شيئاً⁽²⁾

وهو حين ذاك لم يقع ولم يحدث إلا أنه قد جعل المتوقع الذي لا بد نزوله بمنزله الواقع⁽³⁾.

د- العنصر المعجمي

(1) نفس المصدر السابق

(2) نفس المصدر 607/1

(1) الكشف 138/4

(2) المصدر السابق 3 / 263.

(3) الكشف 2 / 211.

سبق أن التعبيرين لا يتطابقان إذا كان بينهما أدنى اختلاف ؛ وذلك للاختلاف الدقيق الذي تحدثه أجراس المفردات في نفس السامع، كما أن المفردات من حيث المعنى لا تترادف؛ فإذا جعل مكان اللفظ لفظ آخر قريب منه اختلف التعبير في إيماءاته ودلالاته الدقيقة؛ إليك مثلاً :

شفن رنا حدج لحظ رمق

وكلها بمعنى نظر عند عامة الناس؛ ولكن في الحقيقة أن لكل لفظ معنى يختلف عن الآخر فرنا : رمق النظر بمجامع العين وبفيد إدامة النظر في سكون . ولحظ : نظر من جانب الأذن وحدج: رمى ببصره مع حدة . وشفن : يدل على نظر المتعجب الكاره⁽⁴⁾.

ولأجل ذلك ، كان لكل لفظ مقام يليق به وموضع من الكلام يناسبه ، وكان عمود البلاغة هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأشكل به، وذلك لأن الكلام ألفاظ مترادفة متقاربة المعاني في زعم أكثر الناس ، والأمر فيها عند الحذاق بخلاف ذلك؛ لأن لكل لفظة خاصة تتميز بها عن صاحبها في بعض معانيها ، وإن اشتركتا في بعضها⁽¹⁾. فالألفاظ التي يظن بها الترادف من الدقة واللفظ في المعنى ؛ بحيث تكاد تخفي على اللغوي - ناهيك عن العوام - وأمثال ذلك في القرآن العظيم :

(الخوف والخشية) و (الشح والبخل)

و (العمل والفعل) و (القعود والجلوس) وغيرها.

فـ(الخشية) أعلى من (الخوف) وأشد ؛ وهي مأخوذة من قولهم (شجرة خشية) : أي يابسة؛ وهو فوات بالكلية ، والخوف من قولهم (ناقة خوفاء): أي بها داء وهو نقص وليس بفوات ؛ ولذلك خصت الخشية بالله وخص الخوف بيوم الحساب في قوله تعالى :

[يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب] " الرعد آية : 21 "

وفرق بينهما أيضاً بأن الخشية تكون من عظم المخدشي وإن كان الخاشي قوياً ، والخوف يكون من ضعف الخائف وإن كان المخوف يسيراً ، ويدلك على ذلك أن (الخاء والشين والياء) في تقاليبها تدل على العظمة ؛ نحو : (شيخ) للسيد الكبير ، و(خيش) : لما غلظ من الثياب ؛ ولذا وردت الخشية غالباً في حق الله⁽²⁾ نحو قوله : [ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون] " البقرة آية: 74 "

وقوله: [إنما يخشى الله من عباده العلماء] " فاطر آية: 28 " . ولكن لو كان ذلك الأمر صحيحاً مطرداً فلماذا جاء

الخوف في حق الله تعالى في قوله : : [يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون] " النحل آية : 50 " ؟

(4) د على عبد الواحد وافي : فقه اللغة ، ط/ نهضة مصر (بدون تاريخ) ص 168-169.

(1) البرهان في علوم القرآن 2 / 105

(2) معتزك الأقران 3 / 602

والجواب : إن في ذلك نكتة لطيفة وهي : أنه وصف الملائكة ولما ذكر قوتهم وشدة خلقهم عبر عنهم بالخوف ؛ لبيان أنهم وإن كانوا غلاظاً شداداً فهم بين يديه ضعفاء ثم أردف ذلك بالفوقية الدالة على العظمة بقوله (من فوقهم) ، فجمع بين الأمرين ، ولما كان ضعف البشر معلوماً لم يحتج إلى التنبيه عليه⁽¹⁾.

أما الفرق بين (الشح) و(البخل) ، فـ(الشح) هو : أشد البخل ؛ وهو : بخل مع حرص ؛ وقريب منه في المعنى الضن ؛ والضن إنما يكون بالعواري والبخل يكون بالهبات ؛ ولهذا يقال (هو ضنين بعلمه) ولا يقال (بخيل) ؛ لأن العلم بالعارية أشبه منه بالهبة ، لأن الواهب إذا وهب شيئاً خرج عن ملكه بخلاف العارية ؛ ولهذا قال تعالى : [وما هو على الغيب بضنين] " التكوير آية : 24 " ولم يقل (بخيل)⁽²⁾.

أما (العمل) و (العمل) ، فالعمل لما كان مع امتداد زمان ؛ في نحو قوله : [يعملون له ما يشاء من محاريب وتمائيل ..] " سبأ آية : 13 " وقوله : [ألم تر كيف فعل ربك بعاد] " الفجر آية : 6 "

لأنها إهلاكات وقعت من غير بطء ولهذا قال في شأن الملائكة : [ويفعلون ما يؤمرون] " النحل آية : 50 " أي في طرفة عين . ولهذا أيضاً عبر بـ(العمل) في قوله : [وعلوا الصالحات] " البقرة آية : 25 "

حيث كان المقصود المثابرة عليها لا الإتيان بها مرة أو بسرعة ، وقد عبر بـ(العمل) في قوله : [وافعلوا الخير لعلمكم تفلحون] " الحج آية : 77 "

حيث كان بمعنى سارعوا ؛ وذلك كما قال - في آية أخرى :-

(فاستبقوا الخيرات) " البقرة آية : 118 "

وكما قال - أيضاً - : [والذين هم للزكاة فاعلون] " المؤمنون آية : 4 "

حيث كان القصد يأتون بها على وجه السرعة من غير توان⁽¹⁾.

أما (العود) و(الجلوس) ؛ فالأول لما فيه لبث ؛ بخلاف الثاني ؛ ولهذا يقال : (قواعد البيت) ولا يقال : (جوالسه) ؛ للزومها ولبثها ، ويقال : (جليس الملك) ولا يقال فعيده ؛ لأن مجالس الملوك يستحب فيها التخفيف ؛ ولهذا استعمل الأول في قوله : [في مقعد صدق] " القمر آية : 55 " . للإشارة إلى أنه لا زوال له⁽²⁾.

وليس الأمر قاصراً على دقة اختيار المفردات - في هذا العنصر المعجمي - التماساً للتناسب بين الفكرة والتعبير وطلباً للانسجام بين المفردات المكونة للجملة ، بل يتعداها إلى العدول عن اللفظة المتوقعة في التعبير من حيث المعنى إلى تلك التي لم تتوقع قط ؛ ولكنها جاءت لأغراض جمالية ودلالية أبعد غورا وعمقاً ، وليس أمر العدول هنا في العدول في الألفاظ المتقاربة من حيث المعنى والتي يظن بها الترادف ، وهي ليست منه فحسب - كما سبق - بل يمتد هذا العنصر المعجمي إلى معرفة علاقة الكلمة بالبدائل التي يمكن أن تحل محلها ، ولم يكن بينها وبين البدائل علاقة واضحة ، بل ربما

(1) نفس المصدر السابق.

(2) نفس المصدر السابق.

(1) نفس المصدر السابق.

(2) نفس المصدر السابق.

كانت في بعض الأحيان مناقضة لها ؛ انظر إلى قوله تعالى : [**وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين**] " سبأ آية : 24 "

ألا ترى كيف خولف بين حرفي الجر الداخليين على (الحق) و (الضلال) ، وكان المتوقع في الاستعمالات العادية المشاعة في غير القرآن أن يقال (لعلى هدى أو لعلى ضلال) أو (في هدى أو في ضلال) ، ولكن عند التأمل تنكشف الأغراض الجليلة الدقيقة؛ فصاحب الحق - في لطف هذه العبارة الإلهية ومن خلال حرف الجر (على) كأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء ، والضال من خلال حرف الجر (في) كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدري أين يتوجه(1).

فدلالات الألفاظ - عند التركيب - أظراً أوسع من ظاهر المعنى ؛ وهذه الأطر تشعر بما وراء اللفظ الظاهر من إحياءات وإيماءات ؛ ألا ترى كيف انصرف الذهن - في الآية السابقة- إلى الركوب والانغماس.

وربما كان العدول في العطف ، حين يقوى توقع المعطوف ؛ إذ لا بد من علاقة بين المعطوف والمعطوف عليه - وإن كانت هذه العلاقة تمثل التناقض والتباين - وهو ما سماه البلاغيون بـ (مراعاة النظر) وبدون هذه العلاقة تنحل روابط الكلام ، وتنقسم عراه ، ولكن إذا كان هذا العدول يشكل تناسباً خفياً بين الفكرة والتعبير ومن ثم بين المفردات؛ فهذا مما يزيد الكلام شرفاً ورفعة ؛ انظر إلى قوله تعالى : (**ولياخذوا حذرهم وأسلحتهم**) " النساء آية: 102 "

ألا ترى كيف جمع بين (الحذر) و (الأسلحة) في الأخذ ؛ وذلك لأن الحذر وهو : التحرز والتيقظ آلة يستخدمها الغازي ؛ فلذلك جمع بينه وبين الأسلحة في الأخذ ؛ فجعلنا مأخوذين(2). ومثله قوله تعالى : [**والذين تبوءوا الدار والإيمان**] " الحشر آية: 9 " ألا ترى كيف جعل الإيمان مستقراً لهم ومتبواً ؛ لتمكنهم في ذلك ؛ فجمع بينه وبين الدار في التبوء(3) ؛ ومثله أيضاً قوله تعالى : [**وقودها الناس والحجارة**] " البقرة آية : 24 ". ألا ترى كيف قرن الناس بالحجارة وجُعِلت وقوداً معهم ؛ لأنهم قرنوا بها أنفسهم في الدنيا حيث نحتوها أصناماً وجعلوها لله أنداداً وعبوها من دونه(4).

(1) الكشف 281؛3

(2) نفس المصدر 56/1

(3) نفس المصدر 83/ 4

(4) نفس المصدر 247/1

الخاتمة :

سبق أن علاقة الكلام بمقاصده التي من أجلها نشأ هي المعول عليه في دراسة الكلام الإلهي إذ أن الكلام ما نشأ أصلاً ولا وضع إلا من أجلها فهو الجانب البين الذي يعكسها ولا شك أن هذا الكلام الذي يدل على المقاصد لا يكون مفردات أشتاتاً ولا ألفاظاً متفرقة ولأجل ذلك يجب دراسة هذه الجزئيات والمفردات في إطار سياقها .

المراجع :

- 1/ ابن أبي الأصبع : تحقيق حفني شرف ، بدائع القرآن ، مطبعة الرسالة بالقاهرة ، 1957م.
- 2/ ابن سنان الخفاجي : تصحيح عبد المتعال الصعيدي ، سر الفصاحة ، ط القاهرة ، 1952م
- 3/ الجاحظ : تحقيق فوزي عطوي ، الحيوان ط/ 3 دار صعب ، بيروت ، 1982م.
- 4/ أبو هلال العسكري : تحقيق علي البجاوي ، الصناعتين ط/ إحياء الكتب العربية ، 1952م.
- 5/ أبو حامد الغزالي : المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ، مكتبة الجندي، القاهرة ، 1989م.
- 6/ الأشعري : تحقيق محمد محي الدين : مقالات الإسلاميين ، ط نهضة ، مصر
- 7/ د. بدوي طبانة : البيان العربي ، ط/ 5 ، 1972.
- 8/ بدوي طبانة : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (تحقيق)، ط/ نهضة مصر ، 1959م.
- 9/ د. تامر سلوم : نظرية اللغة والجمال في النقد العربي ، ط/ 1 دار الحوار ، 1983م.
- 10/ جمال الدين عبد العزيز شريف : الأسرار البلاغية للتذكير والتعريف : (مخطوطة)
- 11/ شروح التلخيص : ط/ دار الشروق ، 1984م.
- 12/ سيد قطب : في ظلال القرآن ، ط/ 12 دار الشروق ، 1984م.
- 13/ د. الطاهر محمد علي : الملامح العامة لنظرية الأدب الإسلامي ، دار جامعة أم درمان الإسلامية ، 1984م.
- 14/ عبد القاهر الجرجاني : تحقيق محمد رضوان الداية ، دلائل الإعجاز ، 1983م.
- 15/ د. عبد الله الطيب : المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، ط/ 1 ، بيروت ، 1970م.
- 16/ د. عبد الحميد حسن : الأصول الفنية للأدب ، ط/ 2 ، القاهرة ، 1964.
- 17/ د. على عبد الواحد وافي : فقه اللغة ط/ نهضة مصر (بدون تاريخ)
- 18/ العلوي : الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، ط/ دار الكتب ، 1980م.
- 19/ مجلة منار الإسلام : مقال بعنوان الألفاظ القرآنية في علاج التوتر العصبي / أبريل 1986م .
- 20/ محمد السيد أرنؤوط: الإعجاز العلمي في القرآن ، مكتبة مدبولي ، القاهرة .
- 21/ غنيمي هلال : النقد الأدبي ، ط/ دار نهضة دار مصر (بدون تاريخ).
- 22/ محمد كامل عبد الصمد : الإعجاز العلمي في الإسلام ، ط/ 1 ، الدار المصرية اللبنانية ، 1990م .
- 23/ د. معن زيادة وآخرون : الموسوعة الفلسفية الحديثة ، ط/ 1 ، معهد الإنماء العربي ، 1986م.
- 24/ مناع القطعان : مباحث في علوم القرآن ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، 1990م .